

الشرق

ملحمة العشق الاستشراقي

عبدالرحمن مظهر الهلوش

كتاب المجلة العربية

270

الشـــرق

ملحمة العشق الاستشراقي

تأليف

عبدالرحمن مظهر الهلوش

كتاب المجلة العربية

270

المجلة العربية

رئيس التحرير
محمد بن عبداللّه السيف

الرياض. طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين). شارع المنفلوطي
هاتف: 4777943. 4767345 فاكس: 4766464
ص.ب 5973 الرياض 11432
المملكة العربية السعودية

www.arabicmagazine.com
info@arabicmagazine.com



ⓗ المجلة العربية، 1440هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الهلوش، عبدالرحمن مظهر
الشرق ملحمة العشق الاستشراقي. / عبدالرحمن مظهر الهلوش.- الرياض، 1440هـ
108ص؛ 21×14سم. - (كتاب المجلة العربية؛ 270)
ردمك: 978-603-8204-73-3
1 - الاستشراق والمستشرقون أ.العنوان ب.السلسلة
ديوي 301.295 1440 / 3657

رقم الإيداع: 1440 / 3657
ردمك: 978-603-8204-73-3

المحتويات

الشرقُ شــرقٌ والــغــربُ غــربٌ، ولــن يلتقيا .

الشاعر الاستعماري المشهور (كبلنج Kiplлng)[1]

إنّ حضــارة جديدة أوشكــت على الشروق في أروع صورة هي حضارة الإسلام الذي يملك أقوى قوة روحانية عالمية .

شبينغلر[2]

إن الحضــارة الغربيــة عندمــا تلجــأ إلــى الشــرق فإنهــا تبحــث عــن إعــادة توازنهــا الإنســاني المفقــود

جليبر دوران

(1) روديارد كبلنج: (1865 – 1936) كاتب وشاعر وقاص بريطاني ولد في الهند البريطانية.

(2) أوسفالــد أرنولــد غوتفريد شبينغلــر: (1880 – 1936) مؤرخ وفيلسوف ألماني شملــت اهتماماته أيضاً الرياضيات والعلم والفن.

المقدمة

شَهِد القرنان الثامن عشر والتاسع عشر تدفقاً غربياً تجاه الشرق العربي بلغ حد الهوس بكل ما هو شرقي، من خلال هجرة المغامرين والرحالة والرسامين إلى ولايات الإمبراطورية العثمانية، خصوصاً بلدان المغرب العربي وبلاد الشام والعراق، أُطلِقَ على هذه الهجرة فيما بعد (الاستشراق) الذي اقترن في الكثير من مظاهره بالسيطرة والمعرفة والمغامرة الرومانسية. وإذا كانت ظاهرة تزايد الرحّالة الغربيين من أهم معطيات عصر الثورة الصناعية، فإنها أفرزت كذلك نوعين من العاملين في الاستشراق، هما:

المرتحلون أنفسهم، وهم الذين يكتبون التقارير.

الأكاديميون الذين يجمعون تقارير الرحَّالة على سبيل التحليل والدراسة للخروج بتنظيرات وخلاصات فكرية. بيد أن ظاهرة الارتحال إلى الشرق والانغمار بأعماقه كانت تبدو للجمهور الأوروبي عملية مثيرة؛ بسبب الصعوبات والمخاطر التي يواجهها الرحَّالة المغامر الذي يأخذ على عاتقه مهمة تعريف القارئ على عالم مختلف، عالم منفلت من الزمن، ومن رتابة ذبذبة الماكنة في المدينة الصناعية.

وقد اعتبرت الروائية البريطانية (أغاثا كريستي) الشرق: بِأَنَّه خصب ومسالم، وأضافت... حلمت بالعودة إلى هذا (الشرق) قائلة: (إن شاء الله، سأعود إلى هناك، وكل ما أحببته لن يختفي عن وجه هذه الأرض).

وكذلك الرحالة (ليدي آن بلنت)[1]. التي وصلت إلى حائل عام 1879 وهي حفيدة لورد بيرون وزوجة الشاعر ولفريد سكاون بلنت، وهي أول امرأة

---

(1) ليدي آن بلنت: حفيدة الشاعر البريطاني الشهير اللورد بايرون الوحيدة، كانت من أهم الرحّالة في القرن التاسع عشر. رافقت زوجها في رحلته إلى العراق والجزيرة العربية ودخلت حائل في المملكة العربية السعودية.

إنكليزية تعتبر البدو من بين أصدقائها. وكانت قد وصلت إلى شبه الجزيرة العربية كرحَّالة إلى مدن الشرق. وفي القرن العشرين تابعت السيدة (غرترود لوثيان بل).[1]

مسيرة النساء في رحلة إلى شمال الجزيرة العربية (1913–1914)، ثم كانت زيارة روزيتا فوريس لبلاد الإدريسي في عسير واليمن عام 1922 وكذلك رحلة (كورنيلاد النبرج) إلى جزيرة العرب (1922 – 1935) التي جاءت من أمريكا إلى الهند ثم عدن في طريقها إلى البحرين والقطيف. وهناك السيدة (جيرالدين رندل) التي قدمت إلى المملكة العربية السعودية عام 1936 كرحّالة بدعوة من الملك عبدالعزيز آل سعود.

وبالتالي هناك شوق غرائزي، أرادت الشعوب الأوروبية تذوقه في هذا الشرق، من منطلق التوق إلى كل ما هو غرائبي، بصرف النظر عن المخاوف التي كانت قائمة آنذاك، لقد صار التوجه نحو (الشرق) سمة أساسية من سمات الأوروبيين. بدواعي شخصية بحتة يدفعها حب المعرفة واستكشاف العوالم الجديدة.

وبذلك يعبّر الاستشراق عن ظاهرة ثقافية ومعرفية تغذيها عواطف اكتشاف ذلك المجهول الشرقي (المحبب) والمحاط بالألغاز التي لا تفسر بسهولة، فالشرق هو عبارة عن مجهول في النفس الأوروبية المتعطشة لاكتشاف تلك البقعة وجعلها مشروع بحث علم مستنداً على دوافع سياسية

---

(1) كرترود مارغريت لوثيان بل: (1868 – 1926)، ضابطة مخابرات وباحثة بريطانية مشهورة عملت في العراق مستشارة للمندوب السامي البريطاني برسي كوكس في العشرينات من القرن الماضي. جاءت إلى العراق عام 1914 ولعبت دوراً بالغ الأهمية في ترتيب أوضاعه بعد الحرب العالمية الأولى، فقد كانت بسعة علاقاتها ومعارفها وخبراتها بالعراق أهم عون للمندوب السامي البريطاني في هندسة مستقبل العراق، عرفها العراقيون بلقب الخاتون أو المس بيل. اقترحت قيام مجلس تأسيسي للدولة العراقية بهدف تنصيب الأمير فيصل بن الحسين على العراق، ولها الفضل في تأسيس المتحف العراقي. دفنت في مقبرة الوزيرية في بغداد.

وعلمية واقتصادية وثقافية وتبعية. فراحت عيون الغربيين تتسع أكثر فأكثر علــى ثروات الشرق، وقد رافقها في الرحلة إليه وصّافو الشرق من رسامين، ومستكشفــين، ومغامرين عبر المدن والصحارى والجبــال والسواحل قريبة وبعيدة عن عواصم الشرق.

إذاً الاستشــراق هــو دراســة كافــة البُنــى الثّقافيّــة للشّرق مــن وجهة نظر غربيــة، وتستخدم كلمة الاستشراق أيضاً لتدليل تقليد أو تصوير جانب من الحضارات الشرقية لدى الرواة والفنانين في الغرب. المعنى الأخير هو معنى مهمل ونــادر استخدامه، والاستخدام الأغلب هــو دراسة الشرق في العصر الاستعماري ما بين القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

فمنذ نهاية القرن الثامن عشر، عمل الاستشراق على اختزال الحضارة العربية الإسلاميــة في قوالب سهلة وثابتــة (stereotypes) الأمر الذي خدم أهداف القوى الإمبرياليــة في السيطرة على الشرق. وكذلك فــإنّ الفكر الاستشراقي يحيل الماضي العربي الإسلامي إلى كينونة ميتة يمكن للذهن الغربي الارتجاع عليهــا عند الحاجة لاستخلاص الدروس والخبرات لمصلحة حضارتهم، حيث صــارت كلمــة الاستشراق تدل علــى المفهوم السلبــي وتنطوي علــى التفاسير المضــرّة والقديمة للحضــارات الشرقية والناس الشرقيــين. وإنَّ وجهة النظر هذه مبيّنة في كتاب إدوارد سعيد، الاستشراق (المنشور سنة 1978).

ومن دون شك فإنَّ السحر الشرقي الذي طبع الغربيين وجعلهم هائمين بكل مــا ينتمي للشرق باعتبــاره عالماً أسطورياً، جعل بعضــ المستشرقين يتخلون عــن ارتباطهم المعنــوي وحتى الديني مع الغرب، معتنقــين الدين الإسلامي وقــد أصبحوا مدافعين عنــه حتى في مجتمعاتهم الأصليــة، حيث تركوا بعد وفاتهــم إرثاً قيماً كان له كبير الأثر في فهــم واكتشاف بعض جوانب الشرق الغامضة.

وقـد كان الاستشراق واحداً مـن التيارات الأكثر حضـوراً في القرن التاسع عشـر، والدول الإسلاميـة كان لها نصيب وافر من الاهتمـام الغربي، فهي بالنسبـة للمستشرقـين أرض (بـور) بحاجة إلـى اكتشاف كنوزهـا الفنية الدفينـة. وقد كان السفر إلـى الشرق بالنسبة للأوروبيـين نوعاً من الحج، حتـى إنّ بعض المستشرقين تعمدوا في أسفارهـم الشرقية التلّون بشخصية المـكان الذي يتواجدون فيه فيصبح بدوياً إذا كان يعيش بين القبائل العربية المتنقلـة ومدنياً إذا صادف وجوده في المدن الكبرى، وربما بعضهم قد أخفى شخصيته الحقيقية خوفاً من أن يلاحق ويمنع في التجوال بحرية، فكان لكلٍ منهـم الحرية والطريقة الخاصة في نقل ذلـك السحر الشرقي والأسطوري إلـى بلدانهم بشكل طبيعي، والبعض الآخر أضاف ما يراه يخدم بلده أو من أرسلـه إلى الشرق من أجل اكتشاف مجاهل تلك البقعة من العالم حتى يتم استعمارها فيما بعد.

فلـم يكـن الهيام بالشـرق وحضارته حكراً علـى فئة معينة فـكان المهندس والباحـث والرحالة والفنـان كلٌ يبحث عن ضالته وهدفـه بالتأكيد مختلف عن الآخر.

وبالنسبـة للديـن الإسلامـي والمستشرقـين المهتمـين بالإسلام، فقـد لَعِبَ الاستشـراق الدور الأساسـي في تقديم صورة نمطيّة عـن العرب والمسلمين في الغـرب. صوّرهـم شعوبـاً متخلّفـة وعنيفـة. عـن طريـق تقـديم بعض الدراسات عنهم. حيث قام بتلك الدراسات عسكريون وإداريون كولونياليون وتبشيريـون وأساتذة جامعيـون، وهكذا وجَدنا مـدى مساهمة المستشرقين في الـدور الاستعماري؛ فكان منهـم الرَّحَّالة والمبشـرون، والضبَّاط ورجال الإدارة الاستعماريـة، واللغويـون واللاهوتيـون، والإنثروبولوجيـون ومؤرخو

الحضارات، والرومانسيون والأركيولوجيون[1]، ورجال المخابرات، والمؤرخون والاقتصاديون، ومتدربو الشركات، وخبراء الأسواق التجارية والسياسيون؛ مـن أجل السيطـرة على الشعـوب الخاضعـة لسلطانها؛ مما مهَّـد الأرض للاستعمار الغربي في الشرق. لقد أفاد الاستعمار من الاستشراق التقليدي، الذي كان بمثابة دليلٍ له في شِعاب الشرق وأوْدِيته، بما قدَّمه إليه من معارفَ فـإنّ تلك الكتابات والآراء تعكس وجهة نظـر خارجية وعلى الأغلب منحازة لديهـا مشروعها الخاص التي تهـدف إلى إيصاله إلى الـرأي العام لديها، وتمارسـ ذلك من خـلال نظرة استعلائية، ومتأثـرة بنزعة عرقية مركزية مؤكدة، وعلى العموم تكون نظرتها سلبية تجاه الإسلام والمسلمين.

إذاً هناك تقسيـم لأصناف المستشرقين: المستشـرق الجاسوس، المستشرق المخبر، ثم المستشرق العالم الذي ذهب إلى هناك بهدف المعرفة الخالصة.

ومـا دفعني في البحث في هذا الموضوع الشائـك، هو قدوم أحد المستشرقين الفرنسيـين إلـى مسقط رأسي في شمـال شرق سوريا بالقـرب من الحدود العراقيـة، حيـث كان ذلـك الفرنسـي والـذي أطلـق عليـه سـكان المنطقة (الفرنسي المتسول) والذي جاء إلى تلك المنطقة في عشرينات القرن الماضي وهـو يدعي الجنون والتسـول، وكان يتخذ من منزل مهجـور بجانب مسجد في القريـة مكاناً للنوم وفي النهـار يبدأ بالتسول في القرى والمزارع المحيطة، وكان في الحقيقـة يجمع معلومات عن المنطقـة قبل قدوم القوات الفرنسية، وبالفعـل بعد دخول القوات الفرنسيـة إلى المنطقة شُوهِدَ باللباس العسكري الفرنسـي التقليدي، فقد كان دليلاً للقـوات الفرنسية ومكث بالمنطقة لعدة

(1) الآركولوجيـا: أو (علـم الآثـار)، وهي الدراسـة الأثنولوجية والأثنوغرافية لحضـارات شعوب بائدة من الآثار التي يجدها العلماء في الحفريات. بمعنى آخر فإنها تعنى بدراسة البيئة المادية الدالة على ماضي الإنسان والتي تشمل الموضوعات التي يمكن رؤيتها وتحسسها وقياسها وتصنيفها. و(الأركيولوجيا) فرع الأنثروبولوجيا الذي يركز على المجتمعات والثقافات البشرية الماضية وليس الحاضرة.

سنــوات إلى أن رحل إلى باريس حيث كان يحمــل شهادات عالية في التاريخ واللغات وهــذا الشخص من المؤكد أنه ينتمي إلى جيــل المستشرقين الأوائل الذين عملوا أدلَّاء لبداية حقبة استعمارية جديدة لتقسيم المنطقة العربية.

لا أنكــر بأننــي قد استفــدت من خلال البحــث عن عناصر هــذه المادة من مراجع ومصادر، فقدت اطلعت على أسرار شرقنا وجاذبيته التي بحق كانت ولا تــزال تشكل مادة مغرية للغربيين، وأنــا لا ألوم المستشرقين وكل من كان لــه هيام بالشرق، فهذا الشرق يستحــق أكثر لِما فيه من عناصر الرومانسية والسحر والجاذبية والطبيعة الهادئة.

عبد الرحمن مظهر الهلوش

أولاً: الاستشراق

> سَيظل الغرب ينجب القادة والمحاربين، والشرق ينجب الأنبياء والقديسين.

ول ديورانت، صاحب قصة الحضارة

الاستشراقُ: هو الاشتغالُ بدراسة الشرق من أقصاه إلى أدناه، في كلِّ ما يتعلَّقُ به من عقائدَ ومعتقدات، وآداب وفنون، وعادات وتقاليدَ، وتاريخ وجغرافيا. إنّ انطلاقة الاستشراق الكبرى ابتدأت في منتصف القرن التاسع عشر أو قبله بقليل. ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن، أي طيلة قرن ونصف، شهدنا ظهور عدة موجات من المستشرقين الكبار. الموجة الأولى تمثلت بسيلفستر دو ساسي، وإدوارد ويليام لين، ورينهارت دوزي، وميكائيل جان دو غوجيه، وهنريش فليشير، وكراشكوفسكي في سانت بترسبورغ وسواهم. إنّ هؤلاء المستشرقين الأوائل هم الذين مهدوا الطريق للدفعة الثانية من المستشرقين الذين بدؤوا بتأليف الكتب عن الإسلام والمنطقة العربية، فمعرفة اللغة العربية، أي لغة الإسلام الأساسية، تشكل البداية الأولى الإجبارية للانخراط في استكشاف مجاهيل التراث الإسلامي.[1]

مراحل الاستشراق

1 - مرحلة التكوين:

وهي مرحلةُ الانبهار بالحضارة العربيَّة والإسلامية، وذلك منذ بداية الفتح الإسلامي في أوروبا، فأنشؤوا مكتبَ المترجمين سنة 1130م، وترجموا أمهاتِ الكتب العربية إلى اللاتينية، وقام الراهبُ الإنجليزي (هرمان)

(1) راجع: صالح، هاشم، مجلة المجلة، العدد (227)، 9 شباط/ فبراير 2014.

بترجمــة القرآن الكريم لأول مــرة سنة 1143م، ولخــوف الكنيسة من تأثُّرِ أتباعها بتعاليم القرآن؛ أخفتْ هذه الترجمةَ، فلم تظهر إلاَّ في عام 1534م.

2 - **مرحلة التقدم:**

وذلك بعــد الحروب الصليبية، حيــثُ لم تؤتِ ثمارَهــا الاستعمارية المرجوَّة منها؛ فبــدؤوا يفكرون في غــزو المسلمين فكريّاً؛ لزحزحتهــم عن عقيدتِهم الراسخة.

3 - **مرحلة الانطلاق:**

شهــد القــرنُ الســادسَ عشــرَ والسابــعَ عشــرَ الميلاديــان ازدهــاراً كبيراً للاستشــراق في النواحي العلمية والدراسيــة المتخصصة، ومع بداية القرن العشرين، حيــث بدأ العالمُ العربي في الاستقلال، بــدأتْ حركةُ الاستشراق تغوصــ في أعماق الفكر والأدب الإسلامــي، وانتقل المستشرقون من الهجوم المباشر على الإسلام، إلى الهجوم المستتر الخفيِّ.

الخصائصُ العامّةُ للاستشراقِ:

يمكن لنا إجمال بعض السِمات المشتركة للاستشراق؛ ومنها:

أولاً: وُلِد الاستشراق في أحضانِ الأندلس الإسلامية، والتقاء الغرب بالشرق في الحرب الصليبية.

ثانيــاً: عاش قروناً في كنــفِ الأيديولوجية الغربية. ولعب دوراً في بناء نظرية الأيديولوجية الاستعمارية، ومهَّد لها سبل استعمار الشرق عسكريّاً وسياسيّاً وفكريّــاً. وكان ذا اتجاهات متعددة ومختلفة، تنوَّعــت ما بين آداب، ولغات، وفلسفة، وعلوم، وتاريخ، وفقه... إلخ.

ثالثــاً: كان هناك اهتمام من قبــل الدوائر المعنيّة بالاستشراق والمستشرقين

بإنشـاء معاهد وجمعيـات وأكاديميات متخصصة، وعقـد مؤتمرات، ونشر مجـلات ودوريـات متخصصة في مجال الاستشراق. وقـد انصب الاهتمام بالعالم الإسلامي بشكل واضح في منطقة الشرق الأوسط.

رابعـاً: وقد عُـدَّ الاستشـراق أسلوباً خاصّـاً في التفكير، ينبنـي على تفرقة أساسية بين الشرق والغرب؛ وقد تميزت الظاهرة الاستشراقية بأنّها ظاهرة مستغلَّة باسم العلم بواسطة قوى دينية وسياسية واقتصادية وفكرية.

خامسـاً: ويوصـف الاستشـراق بأنّـه ظاهرة فريـدة من نوعهـا، وليس لها مقابـل في الحضارات الأخـرى[1]. ومن هنا لا يمكننا من أن نفهم السِجَالات الاستشراقيـة بين الشرق والغـرب، إلا من خلال التأكيد بـأنّ هذا السجال ينـدرج ضمـن الصراع الأكـبر بين الشرق والغـرب وهو نتاج لـه. ويبدو أن معركة الاستشراق لم تكن متكافئـة منذ بدايتها بين المستشرقين والمفكرين العـرب وستظـل كذلك إلى أمدٍ بعيـد، فكان العرب انفعاليـين، والاتهام هو السمّـة الغالبة لخطاباتهم تجاه الاستشـراق والمستشرقين، بمقابل البرودة واللامبـالاة والغطرسة الغربية، إضافة إلى تنـوع في الخطاب الاستشراقي وتعـدد مصـادره، بمقابل تناقضات الخطـاب النقدي العربـي، ودخوله في سجالات محلية.

(1) راجع: زناتي، د. أنور محمود، موقع الألوكة الإلكتروني، تاريخ الإضافة 2016/4/25.

ثانياً: تاريخ الاستشراق

إنّ الحضارة الغربية عندما تلجأ إلى الشرق فإنها تبحث عن إعادة توازنها الإنساني المفقود.

جليبر دوران

الاستشـراق: هو دراسات متخصصة أكاديميـة تكون في الجامعات ومراكز الأبحـاث الخاصـة يقـوم بهـا باحثون غربيـون، وعلـى الأغلـب توجه تلك الدراسـات نحـو الشرق وسكانـه المسلمـين، في جوانب مختلفـة في التاريخ والثقافة على وجه التحديد، إضافة إلى دراسة أساليب الحياة لدى الشرقيين ومـا يمتلكون من ثـروات، وحتى دراسة طريقة تفكـير الشرقي عموماً. لكي يكـون الشرق تابعاً للغرب بكل شـيء. ومهما كان الحيز الثقافي الذي ينتمي إليـه المستشرق ويتحـرك فيه فهو لا يكون بريئاً ولا محايـداً أبداً، ولا يمكنه أن يتصرف بمعيـارٍ عقلاني بحت ومتجرد. لأن مشروعه المتمثل في محاولة رسم الآخر يظل يحمل بالضرورة دمغاً نمطياً.[1]

الاستيهام بالشرق

ولكن هل يمكن تحديد زمن نشوء مصطلح الرحلة إلى الشرق؟ تؤكد الباحثة العراقيـة د.مي عبدالكريم: (من جهة المصطلح ونشوئه وتكونه، ففي الواقع لم يستقـر مصطلح (الرحلة إلى الشرق voyage en Orient) إلاّ في القرن التاسـع عشـر ومـع الرومانطيقيين حصـراً)، وكان أول مـن استخدم هذا المصطلح هو (لامارتين).[2]

---

(1) راجع: السروري، محمد عبدالفتاح، صحيفة الحياة، اللندنية، 4 حزيران/ يونيو 2016.

(2) الفونسـ دي لامارتـين: (1790 – 1869)، كاتب وشاعر وسياسي فرنسي كان كثير السفر وأقام مدة في أزمير في تركيا.

في رحلته إلى الشرق، ولم يتمكن الرحالة من تحديد البقعة التي يُطلق عليها الشرق تحديداً نهائياً، وفي الواقع كانت عبارة (الشرق) عبارة غائمة، حيث تلك العبارة كانت نتاجاً استيهامياً صدر عن التمركز العرقي الأوروبي أكثر مما هو حقيقة موضوعية. كما أن الرحلة إلى الشرق لم تكن ظاهرة سياحية فحسب، إنما كانت الظاهرة السياحية واحدة من نتائجها، بل هي ظاهرة تتضمن الحلم والاستيهام والتمثل والكتابة، والرسم والموسيقى والثقافة الاجتماعية والعادات والسلوك، لقد كان هناك جمهور بأكمله في أوروبا يبحث عن الرحلة إلى الشرق وهو جالس على الأريكة، كان يريد أن يتجول في الشرق وهو غارق في أحلامه في منزل منعزل في أوروبا، فلم يكن جميع الأوروبيون المهتمون بالشرق يستطيعون الوصول إلى مدن الشرق إنما لطبقة برجوازية كانت قد صاغت مفهوماً خاصاً عن الشرق ومدنه، وقد كانت الطبقة السياسية والاجتماعية غير متحررة من انشباكها السياسي والتصوري للعالم، لذلك بقيت تلك التصورات التي حكمت قروناً بأكملها مصاغة ومصنوعة من قبل طبقة واحدة، وتحت تصور ديني وثقافي واحد. فقد كانت الرحلة العلمية الخالية من الادعاءات الأدبية، ينشغل الرحالة فيها بالوصف الاثنوغرافي والمناخي والنباتي والحيواني والمعدني والآثاري والاجتماعي. وكانت هناك الرحلة الأدبية، وهي نوع من الخطاب الأدبي الذي يرتكز على مفاهيم استشراقية مصاغة بأسلوب سردي وبلاغي وشعري، وقد شهد القرن التاسع عشر تطوراً معاكساً للرحلة العلمية بوساطة الرحلة التي قام بها الأدباء، فالأدباء لم يذهبوا بعيداً جداً عن مسارات محددة لرحلتهم، ولم يجازفوا بالخروج عن الطرق المعهودة التي شقها الجنرالات من خلال قيادتهم للجيوش الأوروبية واحتلال دول لها أهميتها في الشرق،

كما فعل الجنرال الفرنسي (غورو)[1] في سورية ولبنان.

حيث كان للأدباء الغربيين غاياتهم الثقافية والأدبية الخاصة بهم إلى جانب تنفيذ مشاريع استعمارية للدول التي ينتمون إليها، حيث لم تكن المعرفة العلمية والانتروبولوجية تعنيهم على وجه الخصوص وتعيقهم عن مواكبة ذلك المشروع.[2]

دلالات المصطلح

الاستشراق في اللغة العربية: جاء في المعجم الوسيط (شرقت الشمس شرقاً وشروقاً إذا طلعت)، وفي لسان العرب: شرق: (شرقت الشمس تشرق شروقاً وشرقاً: طلعت، واسم الموضع: المشرق.. والتشريق: الأخذ في ناحية المشرق، يقال: شتان بين مشرّق ومغرّب، وشرقوا ذهبوا إلى الشرق، وكل ما طلع من المشرق فقد شرق).

أَمَّا في الاصطلاح: فهو (علم الأجانب بحياة الشرق وعلومه وآدابه ولغاته وحضاراته ومدنياته)، والمستشرق هو: (العالم الأجنبي إذا كان عالماً بالعلوم والآداب والفنون واللغات والمعتقدات والعادات الشرقية). وكان أول ظهور لهذه الكلمة (المستشرِق) في القرن الحادي عشر الهجري أو السابع عشر الميلادي. حيث أُطلق على أحد أعضاء الكنيسة اليونانية لقب مستشرق، وبذلك يُعَرّف المستشرق: أنه كل من تجرد عن أهل الغرب لدراسة اللغات الشرقية ولتقصي آدابها للتعرف على أشياء أمة من الأمم وخاصّة الإسلامية من حيث أخلاقها وعاداتها وتاريخها وأديانها.

---

(1) هنري جوزيف أوجين غورو: (1867 – 1946)، ولد في باريس وبها تلقى علومه. وهو القائد العسكري الفرنسي الذي قاد الجيش الفرنسي في نهاية الحرب العالمية الأولى في الحرب التركية الفرنسية (1919 – 1923).

(2) راجع: مجلة المشاهد السياسي، لندن، العدد (445)، آذار/ مارس 2004 ص 45.

حيث نرى بِأَنَّ كلمة استشراق قد أخذت معناها بـ: (دراسة مفكري الغرب والشرق، أو الغرب والشرق الملحد في دراستهما الشرق المسلم).
أَمَّا في اللغات الأوروبية فثمّة تعريف للشرق ليس الشرق الجغرافي وإنّما الشرق المقترن بمعنى الضياء والشروق والنور والهداية، والاستشراق يعني شروق الشمس والضياء والنور عكس الغروب بمعنى الأفول والانتهاء. يقول المستشرق الألماني المعاصر (هارتموت بوتسين) عن مفهوم الاستشراق: الاستشراق مفهوم شامل، نشاط الدراسات الاستشراقية في أوروبا، وكلمة مستشرق تعني: (هو الذي يطلب العلم بالشرق).

ويرد تعريف الاستشراق اصطلاحاً أيضاً حيث يُعَرّف بِأَنَّه: (علم يقضي بمسائل الشرق ودراسة وتحليل واقعه، وبعبارة أخرى: هو الدراسات التي تتعلّق بالشرق. أَمّا المعنى اللغوي للفظ (شرق) بالإنجليزية فهو (بالإنجليزية: Orient)، والدول الشرقية تسمّى (The orient)، والإنسان الشرقي (بالإنجليزية: Oriental)، وكلّ من يبحث في تاريخ الشرق وأحوال أُممه يُدعى (بالإنجليزية: Orientalist) أو مستشرق).

أمَّا المستشرقة الألمانية (آنا شيمل) فتقول: (إنّه علم.. علم له أصوله، وقواعده ومناهجه.. ونحن فهمنا الاستشراق من هذا المنظور، ونتعامل معه على هذا الأساس).

ويرى الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي هذا المفهوم قائلاً: (الاستشراق هو التفرغ من بعض العلماء في أوروبا وأمريكا، لدراسة الشرق في تراثه وثقافاته وتاريخ شعوبه وأديان أممه ولغاتها، وعاداتها وتقاليدها وخصائص حضارات هذه الأمم). ونرى أنّ مصطلح الاستشراق ظهر في الغرب منذ قرنين من الزمان، ولعلّ كلمة مستشرق قد ظهرت قبل مصطلح

استشراق، فنجد آربري (Arberry)[1] يؤكد بِأَنَّ: (المدلول الأصلي لاصطلاح (مستشـرق) كان في عام 1638). وكان آربري يعتمد على قاموس أكسفورد الجديد الذي يُعرف المستشرق بأنّه (من تبحر في لغات الشرق وآدابه).[2]

بينمـا نرى تعريف الاستشراق لدى الغربيين عموماً يرتبط بظهور مصطلح الاستشـراق منـذ قرنين مـن الزمان فقـد كان على تفاوت بسيـط بالنسبة للمعاجـم الأوروبيـة المختلفة، لكن الأمر المتيقـن أن البحث في لغات الشرق وأديانـه وبخاصة الإسلام قد ظهر قبل ذلك بكثير، ولعلّ كلمة مستشرق قد ظهـرت قبل مصطلح استشراق، ربما في عام (1638) على يد أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية وفي سنة 1691 وصف آنتوني وود[3] Anthony Wood صموئيـل كلارك Samuel Clarke بِأَنّـه (استشراقـي نابـه) يعني ذلـك أنـه عرف بعض اللغـات الشرقية. وبـيرون في تعليقاتـه على Childe Harold›s Pilgrimage يتحدث عن المستر ثورنتون وإلماعاته الكثيرة الدالة على استشراق عميق.

نَشْـأَةُ الاستشراقِ: كان هنـاك اختلاف في تحديـد بداية ظهور الاستشراق، فهنـاك عدد مـن المتخصصين أكدوا علـى أن بداية الاستشـراق كانت من الأندلـس أثناء الحكم الإسلامي، وهنـاك من يقـول إن الاستشراق ظهر مع انطلاق الحملات الصليبية باتجاه الشرق وهذا في بداية القرن الثامن عشر الميـلادي، من المُتفق عليه إلى حـد كبير بين الباحثين -خصوصاً الغربيين- أن الاستشـراق اللاهوتـي الرسمي قـد بدأ وجوده حين صـدور قرار مجمع فيينا الكنسي(1312)، وذلك بإنشاء عدد من كراسي الأستاذية في العربية

(1) آرثر جون آربري: (1905 – 1969)، مستشرق بريطاني اختصّ في التصوّف والأدب الفارسي. من كتبه الإسلام اليوم صدر 1943م، وله التصوف صدر 1950م ، وترجمة معاني القرآن الكريم.

(2) راجع: مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق، 2005.

(3) أنتوني وود: (1632 – 1695)، باحث إنكليزي مهتم بالكتب القديمة.

والعبرية في جامعات باريس، وأكسفورد، وبولونيا، وأفينيون.

يذكر أن إبداعات الرحالة، ومشاهدات الحجيج، وتقارير الباحثين والإرساليات والقناصل والخبراء، وضغوط المصالح السياسيّة، خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، قد أسهمت في ازدياد الوعي العام، بالشرق، ومنذ سنوات بعيدة، وقد تطور هذا التطلع إلى رغبة في اتصال مباشر وفيزيقي مع الغريب والعجيب والمثير جداً[1]. يبدو تعريف الاستشراق تبسيطياً لأقصى حدّ، فهو (فهم الغرب للشرق، من دون أن يكون للشرق حقّ أو حرية التعريف بنفسه عن نفسه كما هي في الواقع)![2]

النزعة الاستعلائية

يبدو أنّ الاستشراق قد قام في البداية على جهود فردية، لم تكن ذات تأثير على مجرى التفكير الغربي؛ ممّا أدى إلى عدم اتخاذها نقطةَ بدايةٍ للاستشراق لدى بعض الباحثين، ومن ثَمَّ فإن اعتبار الحروب الصليبية التي بدأت التعبئة لها في مجمع كليرمونت (1095) ميلادي في عهد البابا إربان الثاني -كما سبق أن ذكَرنا- هي البدايات الأولى للاستشراق ويمكن وصفها ببذرة الاستشراق الأولى التي تمّ زرعها في الشرقِ، ومن هنا كانت فكرة الاستشراق قد بدأت تتبلور كتيار فكري عام أو هكذا أُريد لها أن تكون.

وقد تنوَّعت أنماط ومناهج الاستشراق الديني، على يد أهم المستشرقين وهم: يوحنا الدمشقي (680 – 750م)، وهناك من يؤكّد بِأَنَّ الاستشراق قد تأسَّس على يد يوحنا الدمشقي748-م، وهو عالمٌ مسيحيٌّ كان مقرباً

(1) راجع: شاهين، د. محمود: حكايات الشرق الساحر، صحيفة الملحق الأسبوعية، العدد (725)- 2011/1/25 ص 8.

(2) راجع: نصير، نجيب: الاستشراق، معكوساً، صحيفة الأخبار، العدد (2476)، تاريخ 22 كانون الأول/ ديسمبر 2014.

من يزيد بن معاوية وبطرس المبجل (1092 – 1156م)، ريموند لول (1235 – 1316م).[1]

وقد صارت كتابات يوحنا الدمشقي واتهاماته المصدر الكلاسيكي لكل الكتابات المسيحية عن الإسلام. وبذلك برهن الاستشراق أنه من أكثر البنى قوة ذاكرة، فكثير من العناصر التي استخدمها اختفت تماماً، ومع هذا يمكن القول: إنّ يوحنا الدمشقي –الممثل القديم للاستشراق– ظلَّ المصدر المُلهِم والروح الحارس لإحدى أكثر الدراسات المعاصرة تشدداً: الهاجريون (Hagarism) لباتريشيا كرون[2] ومايكل كوك (1977)، وهما تلميذان لوانسبرو، نشرا كتاباً مشتركاً أطلقا عليه اسم (Hagarism) الهاجرية والتي انبنت حججها وتقييمها لمصادر الإسلام –بل ومعاداته– على كتابات يوحنا الدمشقي في حقبة العصور الوسطى، وكل واحد منهم يمثِّل مرحلة مهمة على صعيد دراسة الشرق والإسلام. قِدَم النزعة الغربية لاستعمار الشرق الإسلامي.[3]

ويحاول الباحثان في عملهما (الهاجرية) وفي أعمال أخرى التشكيك بالمسلمات الإسلامية بدءاً من (تسمية الإسلام) وصولاً إلى وجود مكة ومكان الكعبة وجغرافية يثرب والطائف وغيرهما، ولعل الكاتبين يخلطان بين تسمية المهاجرين أي المسلمين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، وبين لفظ (المهجراي أو الهاجريين) الذي يبدو أن اليهود والمسيحيين في سورية وفلسطين

---

(1) ريموند لول: (1235 – 1316م) فيلسوف كتالوني، فكان هو الفيلسوف، والعالم الكيماوي، والموسيقي، والشاعر، والجغرافي، ومخترع البوصلة. ثم انضم إلى رهبنة الفرنسيسكان. انكب على دراسة اللغة العربية والثقافة الإسلامية، قاصداً دعوة المسلمين إلى المسيحية.

(2) باتريسيا كرون: (1945 – 2015) ولدت في الدنمرك، مستشرقة وكاتبة وأديبة ومختصة في التاريخ الإسلامي ولديها كتابات أخرى متنوعة. توفيت في نيو جيرسي في الولايات المتحدة الأمريكية.

(3) راجع: سردار، ضياء الدين: الشرق والإسلام والغرب والاستشراق، فصلية التسامح العُمَانية، العدد (39) 2013.

قـد أطلقوه على المسلمـين لتعريفهم نسبة إلى نسبهم الممتـد إلى هاجر، زوجة النبـي إبراهيـم، أم إسماعيـل. ولا شك أن يهودية كوك قـد لعبت دوراً في هذا الموقـف العنصري والـذي يفسّر محاولته وكذلك (كـرون) في (الهاجرية) أن يصوّرا الإسلام وكأنه استنساخ مشوّه للمذهب السامري اليهودي.(1)

وفي الفـترة ما بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر الميلادي أغار الغرب الصليبـي علـى الشـرق الإسلامـي فيمـا عـرف تاريخياً باسـم (الحروب الصليبيـة)، وإذا كان السبـب الدينـي قد لعـب الدور الأبـرز في قيام تلك الحـروب؛ فإنّ الرغبة في سيطرة الغرب على العالم الإسلامي، والاستحواذ علـى خيراته وثرواته كانت من الأسباب التي لا تقـل في أهميتها وخطورتها عـن العامل الديني، بـل إن بعض الباحثين يجعل رغبـة الغرب في السيطرة على الشرق الإسلامي السبب الرئيس وراء تلك الحروب.(2)

ومنـذ (القرن 11 – 14) بدأ الإعداد للاستشراق من خلال تجهيز للمدارس الاستشراقيـة وعقد الندوات والمؤتمرات وإنشاء جمعيات خاصة لهذا الغرض للتعريف بهـذا الأسلوب الجديد السابق أو الممهـد للاستعمار، وكذلك إقامة المعاهد الاستشراقية التي تخصص قسماً كبيراً منها في دراسة أحوال الشرق.

وعنـد حلول القـرن التاسـع عشر الميـلادي ازداد الجنون الغربـي بالشرق وفنونـه المختلفـة. وقد ساهـم في ذلك بعضـ الأحداث التي جـرت في تلك الفترة من الحروب والأحداث التاريخية:

حرب التحرير اليونانية (1821 – 1929).

---

(1) راجـع: مزاحم، هيثـم: تهافت أطروحة (الإسلام المبكـر) للمستشرقين باتريسيا كـرون ومايكل كوك، صحيفة الحياة، اللندنية، 18 كانون الثاني/ يناير 2013.

(2) راجـع: د.علي، إسماعيل محمد: الدافـع الاستعماري للاستشراق، موقع الألوكـة الإلكتروني (مدّونة)، تاريخ الإضافة 2016/3/9.

الأزمة بين أوروبا ومحمد علي في مصر (1821 – 1841).

الاستيلاء على مدينة الجزائر من قبل الفرنسيين (1830 – 1960).

حرب القرم (1854 – 1855).

افتتاح قناة السويس (1869).

أدى ذلك إلى تنامي تلك الظاهرة (الاستشراق) بشكل غير مسبوق، حيث ساهمت الحملة الفرنسية على مصر (1798 – 1799)، بقيادة (نابليون بونابرت)، بانتشار موجة الاستشراق، وخصوصاً من خلال العقول التي كانت مرافقة للحملة، وقد تولى تلك المَهمّة (سلفستر دي ساسي) والذي كان مديراً لمدرسة اللغات الشرقية (الحيّة) التي أُنشئت عام 1794، لتدريب الشبان الفرنسيين الذين يُراد إرسالهم إلى الشرق، والذين اصطحب نابليون بونابرت معه أكثر من مائة وسبعة وستين عالماً، من مختلف التخصصات: مهندسين، وفلكيين، وكيميائيين، وأطباء، وفلاسفة في غزوه لمصر عام 1799، وشكلت كما يقولون، تنويراً، أو استشراقاً من نوع ما، ومن هنا نرى بِأَنَّ الاستشراق رافق الاستعمار. حيث ظهر الاستشراق في أواخر القرن الثامن عشر وبدايات التاسع عشر، مع حملة نابليون بونابرت على مصر (1798 – 1801). صحيح أن هذه الحملة فشلت سياسياً، لكنها نجحت فكرياً وأيديولوجياً. فقد شكلت بداية لتأسيس علم الاستشراق الحديث، من هنا نجد أن إرادة القوة كانت مسنودة من قِبل إرادة المعرفة.

الشمس الحارقة

من الغربيين الذين تناولوا ظهور الاستشراق وتعريفه المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون[1] Maxime Rodinson الذي أشار إلى أن مصطلح

(1) مكسيم رودنسون: (1915 – 2004) كان مؤرخاً وعالم اجتماع ومستشرقاً ماركسياً فرنسياً. ذهب

الاستشـراق ظهـر في اللغـة الفرنسيـة عـام (1799) بينما ظهـر في اللغة الإنجليزية عام (1838).

لقـد كان هنـاك افتتان غير مسبوق بكل ما هو شرقـي، من قصص ألف ليلة وليلـة والتي من خلالهـا كان ولع الأوروبيين بالشـرق وإسقاط تلك القصص على الواقع الاجتماعي، متأثريـن بالسحرة وأضواء الشرق الباهرة والشمس الحارقـة كدليـل علـى تحمـل الشرقي لـكل تلـك المصاعب. وكانـت لوحات الفنانين الشرقيين تجسد طبيعة الحياة الشعبية فلا يكاد يخلو عمل فني لهم من الجـواري والراقصات في لباسهن التقليـدي، والباعة والحواري الشعبية بكل بساطتها، إلى القصور وما تحويه من ترف ومجون في بعض الأحيان.

أمَّـا المفكـر الفلسطينـي إدوارد سعيـد فلـه رأيٌ آخـر في الاستشـراق: هو (نمـط مـن الإسقـاط الغربـي علـى الشـرق وإرادة السيطـرة عليـه)[1]. ولكـن يـرى كثـير مـن الباحثـين بِـأَنَّ الفرنسـي (جـيراردي أورليـاك)[2] هـو أول مـن استشرق. ويُعـرِف الاستشراق المفكر المصـري الدكتور حسن حنفـي[3] بقولـه: (الاستشـراق هو هذه المجموعـة من الدراسـات التي قام بها الباحثـون الأوروبيـون في أوج النهضة الأوروبية وإبـانّ المد الاستعماري

إلـى سوريا مـع الجيش الفرنسـي أولاً ثم بعد أن سُرِح مـن الجيش ذهب إلى لبنان وعمـل مدرساً للغة الفرنسيـة في صيدا، - وهنـاك من وصفه بالمستعرب- كان رودنسون ماركسي التكوين الفكري والثقافي منذ شبابه المبكر.

(1) راجـع: حسنـي، د. إيناس: الاستشراق وسحـر حضارة الشرق، كتاب مجلة دبـي الثقافية الشهري رقم (62)، مايو/أيار 2012 ص 15.

(2) جربـرت دي أورليـاك: (938) (Gerbert d`Aurillac–1003)م، راهـب فرنسـي، مـن الرهبانيـة البندكتيـة، قصـد الأندلس، صار البابا عام (999م) وتلقب بسلفستر الثاني (Pope Sylvester II)، وقد طلب علوم العرب في الأندلس والمغرب.

(3) حسـن حنفـي: (1935) مفكـر مصري، يقيـم في القاهرة، يعمل أستـاذاً جامعياً. وأحـد منظّري تيار اليسار الإسلامي، وتيار علم الاستغراب، ومن أبرز المفكرين العرب المعاصرين من أصحاب المشروعات الفكرية العربية.

الأوروبــي عندما أرادت أوروبا جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن آسيا وأفريقيــا وأمريكا اللاتينيــة أي في المستعمرات خــارج أوروبا. كان الغرض مــن الاستشــراق والتبشير آنذاك هــو التمهيد لجنود الغــزو العسكري أولاً، والاقتصادي ثانياً، والثقافي ثالثاً من عدة أجيال من المستشرقين). وبصفة عامة يمكــن تعريف الاستشــراق بأنّه: (أسلوب من الفكــر قائم على تمييز وجودي (انطلوجي)، ومعرفي (ابستمولوجي) بين الشرق والغرب).

ويرى الدكتور رضوان السيــد أنّ التاريخانية الألمانية الهولندية والفرنسية، هي التي بلــوَرت على مشارف القرن التاسع عشر المعالم الأولى للاستشراق بمعنــاه العلمي، فالألمان أمهر الغربيين في النطــق باللسان العربي وأكثرهم نبوغــاً فيه. فقد قام الهولنــدي توماس إربنيوســ (1624) بنشْر كتاب عن النحو العربي باللغة اللاتينية، ظل معتمداً طوال ما يَقرُب من قرنين، وازداد تأثــيره في الألمــان عندمــا قــام ميخائيليس عــام 1771 بترجمتــه إلى اللغة الألمانية، والفيلولوجيا -كما صار معروفاً منذ حوالي قرن- هي الركن الأول للتاريخانيــة الألمانية التي بلَغت ذِروة ازدهارها لدى المؤرخين الألمان الكبار؛ مثــل: رانكه[1]. وemploy[2]

أمَّــا في المجال الأدبي، فقد كانت تأثــيرات المستشرقين الألمان الأهم متمثلة

(1) يوپولــد فون رانكه: (1795 – 1886)، مؤرخ ألماني شجــع المؤرخين الألمان على استخدام المنهج النقديّ في دراســة علم التاريخ ومعالجــة أحداثه بموضوعية. وظهر له أول كتاب باسم تاريخ الشعوب الرومانية والجرمانية (1824) كما كتب أيضاً كتاب تاريخ البابوات وتاريخ حركة الإصلاح الديني في ألمانيا.

(2) تيودور مومسن: (1817 – 1903)، ولد لرجل دين دنماركي، كاتب وعالم آثار وصحفي وسياسي ومؤرخ ألماني.

(3) ثيــودور نولدكــه: (1836 – 1930) يعــد شيــخ المستشرقين الألمــان. ولد عــام 1836 في هامبورغ، أتقن العربية، توفي عام 1930.

في نشراتهم للنصوص الأدبية القديمة مثل عيون الأخبار والكامل للمبرد والاشتقاق لابن دُريد وجزء من الأغاني. وظلّ المستشرقون الألمان، الأكبر عدداً بين مستشرقي الدول الغربية الأخرى. وكان كارستن نيبور وغيورغ فريدريش غروتيفند، أول من ترجم اللوحات المسمارية في أواخر القرن الثامن عشر.

على أنّ أكبر تأثير للاستشراق الألماني في مجال التاريخ والكتابة التاريخية جاء من خلال كتاب يوليوس فلهاوزن[1] المشهور: الدولة العربية وسقوطها. صدر الكتاب عام 1901، وترجم إلى الإنجليزية، وبدأ الدارسون العرب يعرفونه من خلال تلك الترجمة.[2]

ووجَدنا أيضاً القديس (توما الأكويني)[3]. فهو -وبرغم معارضته لآراء (ابن رشد)- لا يُنكر فضل المسلمين من أتباع (محمد) في تحرير عصور الظلام التي عاشتها أوروبا؛ لتَصنع بعد ذلك هذا التطوُّر الفكري للحضارة الإنسانية. لقد كان أهم ما أَخَذه عن الأكويني عن (ابن رشد)[4]. هو أسلوبه في البحث الفلسفي لما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا)، ثم أعقَبته دعوات أخرى في الاتجاه نفسه؛ مثل: كتابات همفري بريدو (1648 - 1724م)[5]،

---

(1) يوليوس فلهاوزن: (1844 - 1918)، باحث توراتي ومستشرق ألماني، وهو صاحب الفرضية الوثائقية.

(2) راجع: السيد، رضوان: التأثيرات الاستشراقية الألمانية في البحوث التاريخية والحضارية، صحيفة الشرق الأوسط، لندن، العدد (9470) 1 كانون الأول/ نوفمبر 2004.

(3) توما الأكويني: (راهب دومينيكاني) (1225 - 1274) قسيس وقديس كاثوليكي إيطالي من الرهبانية الدومينيكانية، وفيلسوف ولاهوتي مؤثر ضمن تقليد الفلسفة المدرسية. أحد معلمي الكنيسة الثلاثة والثلاثين، ويعرف بالعالم الملائكي (Doctor Angelicus) والعالم المحيط (Doctor Universalis).

(4) محمد بن أحمد بن محمد بن رشد: يكنّى أبا الوليد، ولد عام 1126 في الأندلس، اشتهر بالقضاء وفي الطب، حيث كان طبيباً لبعض الخلفاء، ثم كانت شهرته بالفلسفة فاهتم بدراسة المنطق والبحث عن الحقيقة وذلك بدرس أرسطو وشرحه توفي عام 1198 في مدينة مراك.

(5) همفري بريدو: (1648 - 1724م) مستشرق إنكليزي اشتهر بكتابه (حياة محمد(، الذي نشر سنة 1697م.

وسيمـون أوكلـي (1648 – 1720)[1]. ثم تبِعه في القـرن التاسع عشر؛ وكان مـن أبـرز المستشرقـين ألويـز شبنجلـر (1813 – 1893)، ووليـم موير[2] (1819 – 1900)، ومرجوليـوث (1858 – 1940)، ودنـكان ماكدونالـد (1863 – 1942).[3]

المقاصد التبشيرية

يقـول البروفيسـور (كريسـ باتن): (إذا كانـت النهضـة الأوروبية الحديثة مَدينـة لأفكار وطروحات توماس الأكويني، فقد اطلع هذا الفيلسوف الأوروبي علـى تراث فلاسفـة الإغريق واللاتـين بفضل الترجمات التـي قدمها علماء المسلمـين في مدرسـة طليطلـة، الذيـن ما يـزال الغربيـون مُدينـين لهم بما قدمـوه إلى العالم القـديم من مؤلفات في مجالات العلـم والدين والفلسفة). ويؤكـد دانييل روز، رجـل البر الشهير في نيويورك: (يجـب الربط بين العالم العربـي المعاصر وبين العصر الذهبي للخلافـة العباسية عندما تألق العلماء والفلاسفة والمعلمون المسلمون فقـد أضاؤوا مجالات الثقافة المستنيرة في كل اتجـاه)[4]. ولم يخلُ الأمر من بعض الآراء المتطرفـة والعنصرية تجاه الشرق وأهله، حيث يكتب الرحّالة الألماني (يوليوس أويتنغ)، نصاً (عنصرياً ظلامياً

(1) سيمون أوكلي: (1678 – 1720)، مستشرق بريطاني. ظل عاكفاً عشر سنوات على تأليف كتابه (تاريخ المسلمـين) (1708–1757)، اضطر إلى استكماله في سجن المدينـين مقدمة المجلد الثاني من كتابه، حيث قبع سجيناً لدَين. وقد أكد أوكلي على أن معرفة الأدب الشرقي كانت أساسية للدراسة الصحيحة للاهوت، توفي في سواقسي.

(2) ويليـام موير: (ولـد في غلاسكـو 27 أبريـل 1819 – نيبـال 11 يوليو 1905) مستشـرق اسكتلندي قام بعمـل دراسات حول حياة النبي محمد عليه الصلاة والسلام والخلافة الإسلامية المبكرة. وتولى إدارة جامعة إدنبرة.

(3) دانكـن بـلاك ماكدونلد: (1863 – 1943 م) هو مستشرق أمريكي. ولد في غلاسكو وكان شديد التدين لـه عدة مؤلفات أهمها (تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستورية في الإسلام)، نيويورك، ١٩٠٣م. يعتـبر إلـى جانب هرمـان تسوتنبرج، في طليعة من عني بكتـاب (ألف ليلة وليلة)، فجمـع منه نسخاً لا توجد عند غيره.

(4) راجع: محبوباني، كيشور: ما بعد عصر البراءة، ط1، 2005، مؤسسة دبي للإعلام.

قاتماً وهو يتجول في الجزيرة العربية؛ كما أن حب الرحالة (ريتشارد بيرتون) للصحراء لم ينفع العرب إلا بمقدار ما نفعنا حب (لورانس) لها، فذلك الحب لطبيعة الجزيرة العربية لم يمنعه من المشاركة في المؤامرات عليها، وهذا (بول بوز) أقام في طنجة (المغربية)؛ قرابة نصف قرن ورحل من دون أن يتعلم كلمة عربية واحدة وكانت علاقته بالمغاربة علاقة خدمة لا أكثر ولا أقل، فليس في ما كتبه ما يساعد على تحسين الصورة العربية إن لم نقل إنَّ فيه الكثير مما يقبحها[1]. ويعتبر اسم المستشرق الفرنسي (لوي ماسينيون) ماثلاً في ذاكرة الشرقيين التي قام فهم الغرب للشرق على أجزاء كبيرة منها، فقد امتلك ماسينيون رؤية مختلفة للواقع العربي في بدايات القرن العشرين، على الصعيد الشخصي حاول أن يجد صلات وصل قوية بين عالمه المسيحي والعالم الإسلامي من خلال شخصية الحلاج، ويكرّس جلّ أوقاته واهتماماته للتنقيب عن سيرة حياته، ساعياً إلى البحث عن اكتشاف نقاط التماثل بين تجربة الحلاج وتجربة السيد المسيح، التي تجلت كمقابل إسلامي لروحانيته المسيحية. بدأ ماسينيون متجهاً إلى عوالم الصوفية، وقد اشتهر ماسينيون ليس فقط بعمق تفكيره وإنّما بجمال أسلوبه أيضاً. وقد تخرجت على يديه أجيال ليس فقط من المستشرقين وإنما أيضاً من المفكرين العرب كعبدالرحمن بدوي والشيخ عبدالحليم محمود الذي أصبح في ما بعد شيخ الأزهر، والمستشرق الكبير ذي الأصل اللبناني جورج مقدسي.[2]

ولكن ماسينيون عاد إلى عالم أوسع، إلى التبشير الكولونيالي، ولا ننكر بِأَنَّ ماسينيون كان له رأي مغاير لآراء المستشرقين حول الشرق وقد اعتبر

(1) راجع: اللاذقاني، محيي الدين: الأصوليات ليست العقبة الوحيدة أمام الحوار الحضاري، صحيفة الشرق الأوسط، لندن، العدد (9166) 2004/1/2 ص 19.

(2) راجع: صالح، هاشم: دفاع عن الاستشراق، صحيفة الشرق الأوسط، لندن، العدد (11356) 31 كانون الأول/ ديسمبر 2009.

(هـؤلاء المستعمَـرون المساكـين لا يوجـدون لأغراضنا فحسب بـل يوجدون بذاتهـم ولذاتهـم)، إلاّ أن جهـده الفكـري استخدم في تحويـل الاستشراق (من خطاب محايد للمعرفة العلمية إلى أداة سيطرة وتسلط)[1]. فقد تحوّل ماسينيون إلى (وكيل استشراق) بحسب تعبير إدوارد سعيد.

يُذكـر أنّ ماسينيون انضم إلى جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، ثم عمـل سكرتيراً لجورج بيكو أحد أقطـاب اتفاقية سايكس- بيكو التي اقتسم المستعمـرون البـلاد العربيـة مـن خلالهـا (1916)، لقد خـدع ماسينيون أصدقـاءه في الشرق ونفسه أيضاً من خلال قيامـه بدور تنويري بما يمتلكه مـن ثقافة وعلـم بالشرق وأديانـه وقد اتخذ ذلك واجهـة للخدمة في تنفيذ السياسـة الكولونياليـة وقـد نجـح في دوره كجاسوس عاشـق للشرق. فقد كان هنـاك اقتران ملغز في حياة المستشـرق الفرنسي ماسينيون بين المثقف الإنساني النزعة، البعيد من الغطرسة والاستعلاء، وفي الوقت عينه، المحارب الكولونيالي الذي يخدم المصلحة الاستعمارية، والمستشار الأول لجورج بيكو أحد صنّاع الأحداث الكبرى في بلادنا، والمبشّر بالمسيحية تدليساً ومواربة.[2]

المركزية المتعالية

ويرى بعض الدارسين أن آراء بعض المستشرقين والرحالة الغربيين المهتمين بالشـرق ما كانت استشراقـاً؛ لأنّ مقاصدها ما كانت معرفية، بل تبشيرية. فلـم يكـن الغرض مـن الاستشراق عموماً العلـم للعلـم أو المعرفة للاطلاع أو توسيـع دائـرة التاريخ خـارج المركز إلـى الأطراف. وقد شـارك في هذه

(1) راجـع: حسـين بن حمزة: لويـس ماسينيون... الجاسوس العاشق، صحيفة الأخبـار، العدد (1232)، 1 تشرين الأول/ أكتوبر 2010 ص 17.

(2) راجع: زين الدين، أحمد: المستشرق لويس ماسينيون بهواه البغدادي، صحيفة الحياة، العدد (17215)، تاريخ 2010/5/23 ص 15.

الدراسات أغلب الباحثين من دول أوروبا الغازية: إسبانيا، وفرنسا، وألمانيا، وبلجيكا، وإيطاليا، وإنجلترا، وروسيا ثم أمريكا.[1]

وفي القرن التاسع عشر الميلادي كان لا بد للبحث الاستشراقي من أن يواجه حقيقة مخالفة لمنظوره الجاهز، حيث وجد نفسه أمام نسق تاريخي وثقافي عربي إسلامي مغاير، في مفاهيمه ونظام حراكه، للصيرورة الفكرية والاجتماعية التي شهدتها أوروبا. وبذلك تصير الفلسفة الإسلامية مجرد فلسفة إغريقية مكتوبة بحروف عربية (كما يقول إرنست رينان)، ويصير الفقه الإسلامي نتاجاً وتحويراً للفقه الروماني (كما يذهب إلى ذلك جوزيف شاخت ودي بور، وجولدتسهير، وسانتلانا، وغيرهم).[2]

ولكن من الصعب أن نكون دقيقين عن أصل الفرق بين الغرب والشرق. فازدهار المسيحية والإسلام خلق خلافاً حضارياً كبيراً بين أوروبا المسيحية والشرق وشمال أفريقيا الإسلامي. في العصور الوسطى كان الأوروبيون المسيحيون يرون المسلمين كأعداء جهنميين لهم. حيث كانت معرفة الأوروبيين للشرق العربي والإسلامي أكثر من معرفتهم لبقية الحضارات الشرقية كالهندية والصينية. ربما لا يعرفون عن تلك الحضارات سوى شهرتها بالحرير والسيراميك. ومن خلال الحملات الاستعمارية صار هناك تمييز بين الحضارات في أفريقيا والأمريكتين والحضارة الشرقية أيضاً.

وكان المفكرون المتنورون في القرن الثامن عشر الميلادي، يصفون أحياناً جوانب من الحضارات الشرقية كأحسن من الغرب المسيحي، مثلاً: فولتير روّج البحث والدراسة عن الزردشتية، على أنها ديانة تدعم الربوبية

---

(1) راجع: اللقاء القيم الذي أجراه، بنسالم حميش مع المفكر حسن حنفي، المنشور في مجلة الوحدة، الرباط، العدد (96) أيلول/سبتمبر 1992 ص 104.

(2) راجع: بوعزة، الطيب: الاستشراق وعقدة المركزية الأوروبية، موقع إيلاف الإلكتروني، 2010/6/18.

العقلانيــة أحسن من المسيحية. آخرون مجــدوا التساهل الديني في الشرق الإسلامــي بــدلاً من الغــرب المسيحي، أو منزلــة العلم في الصــين والشرق عامــةً. مع ترجمة الافيستا واكتشاف اللغات الهندو أوروبية، وضح الاتصال بين التاريــخ الشرقي والغربي القديم. ولكن صــار ذلك الاكتشاف في وسط المنافســة بين فرنســا وبريطانيــا في الهيمنة علــى الهنــد، وكان الاكتشاف متعلقــاً في فهم الحضــارات المستعمرة كي يتحكم عليهــا المستعمر بسهولة. ولكن الاقتصاديين الليبراليين مثل جيمس ميل، ذمّ الأمم الشرقية بِأَنَّ تلك الحضــارات كانت ثابتة وفاسدة وفاسقة. حتــى كارل ماركس وصف أسلوب التصنيــع الآسيوي كرافضة التغيــير. والمبشرون المسيحيــون كانوا يصفون الديانات الشرقية كمجرد خرافات.

إنتاج الشرق

وفي نظــر إدوارد سعيــد يُعدُّ الاستشراق هو (المؤسســة المشتركة للتعامل مع الشــرق، بإصــدار تقارير حولــه، وإجــازة الآراء حوله وإقرارهــا، ووصفه، وتدريســه، والاستقــرار فيــه، وحكمه). وهــو أسلوب غربــي للسيطرة على الشــرق، واستبنائــه، وامتــلاك السيــادة عليه. وهــو إنشــاء استطاعت به الحضــارة الغربيــة أن تتدبر الشرق بل حتى أن تنتجــه، سياسياً واجتماعياً وعسكرياً وعقائدياً وعلمياً وتخيلياً، حتى إنه أصبح ليس بوسع أي إنسان أن يكتــب عن الشرق، أو يفكر فيه، أو يمارس فعلاً متعلقاً به دون أن يأخذ بعين الاعتبار الحدود المعوقة التي فرضها الاستشراق على الفكر والفعل.[1]

فالأدبيات الاستشراقية كُتبت على يد موظفين في دوائر استعمارية بريطانية وفرنسية، كجــزء من النشاط الاستعماري. أو كُتبــت كروايات وأدب تأثرت

---

(1) راجع: علي حسن، عمار: استشراق واستغراب، موقع الوطن، تاريخ 2015/2/20.

بأجـواء الهيمنــة، وإن لم تشارك في صناعتها بصــورة مباشرة. لكن أجواء الهيمنة انعكست على تكوينها بالضرورة.

هذا ما يجعل الصورة التي كتبت عن الشرق في الأدبيات الأوروبية، وأحاديث (ألف ليلة وليلة) لا تشابه الشرق كما عرفه أهله، بل كما اخترعها المستعمر الأوروبــي[1]. فــإنّ أفــكار الأوروبيــين (والأمريكيين) عن الشــرق والإسلام مأخــوذة مــن ألف ليلة وليلة، وقــد أورث الكتاب وأمثاله أفــكاراً خاطئة عن العــرب والمسلمين، صــارت انطباعات ثابتة لدى المجتمعــات المثقفة، فأثرت في السياسات.[2]

أشهر الشخصيات الاستشراقية

أجيالٌ من المستشرقين

في مقدمة المستشرقين المجري اليهودي (جولد زيهر)[3]، وهو صاحب كتاب: (تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي)، أمَّا عن (جولد زيهر) نفسه؛ فإنّه يعد مــن أبرز الخصوم الألــداء للإسلام، حتى إن الدكتــور (محمد البهي) قد صنفه ضمن قائمة المتطرفين من المستشرقين، ثم يأتي المستشرق الأمريكي المتطــرف والعنصــري (جــون ماينــارد)، واليهــودي الألمــاني (جــي فــون غرونبــاوم)[4]. وهو صاحب كتــاب (الأعياد المحمديــة)، وكذلك المستشرق

(1) راجــع: الراشد، بدر: الاستشــراق.. وتنميط العرب في أمريكا، صحيفة الحيــاة، اللندنية، 9 أيار/ مايو 2005.

(2) راجــع: السيد، رضوان، الاستشراق الأمريكي والشرق الأوســط والدراسات الإسلامية، صحيفة الشرق الأوسط، لندن، العدد (11543)، تاريخ 6 تموز/ يوليو 2010.

(3) إجناتــس جولدتسيهر: (1850 – 1921) مستشــرق يهودي مجري، يعتبر على نطاق واسع بين مؤسسي الدراســات الإسلاميــة الحديثة في أوروبــا. تلقى تعليمه في جامعة بودابست، برلــين، أول مستشرق قام بمحاولــة واسعة شاملــة للتشكيك في الحديث النبوي كان المستشرق اليهــودي (جولد زيهر) الذي يعده المستشرقون أعمق العارفين بالحديث النبوي.

(4) غ. فون. غرونباوم: ألماني يهودي، درس في جامعات أمريكا، له كتاب الأعياد المحمدية 1915م ودراسات

الحاقد (آجي فينسينك)[1]. ومن ثم المستشرق الإنكليزي المتعصب (مرجليوث)[2]، وكان له تأثير على عدد من أدباء الشرق، ليأتي المستشرق الفرنسي (بارون كارادي فو)، وهو من كبار محرري دائرة المعارف الإسلامية في ذلك الوقت. وهناك أيضاً المستشرق صمويل زويمر، وهو من أبرز المستشرقين الأمريكيين الذين خاضوا عملاً ميدانيّاً في منطقة الشرق الأوسط، خاصة جنوب العراق، ودول الخليج العربية، وهو المحرِّر للمجلة الإنجليزية الاستشراقية الشهيرة (عالم الإسلام)، وقد اشتَهر بدوره الاستعماري وعدائه الشديد للإسلام، وله مؤلفات عديدة عن الإسلام في العالم، وعن العلاقات بين المسيحية والإسلام؛ منها: كتاب (يسوع في إحياء الغزالي)، وكتاب (الإسلام تحدٍّ لعقيدة) صدر سنة 1908م، وكتاب (الإسلام). فقد كان العديد من المستشرقين -ومنهم وليم مونتغمري واط، وكينيث كراغ، وبرنارد لويس، وبي. إم. هولت، وسي. إي. بوسورث، وجون وانسبوروخ- ما يزالون يتحدثون عن الأصول اليهودية والمسيحية للإسلام، وعن قضية صدق محمد، وقليل منهم يتجشمون العناء في تبيان وجهة النظر الإسلامية.[3]

في تاريخ الثقافة الإسلامية 1954م

(1) أ.ج. فينسينك: عدو للإسلام ، له كتاب عقيدة الإسلام 1932م ، وهو ناشر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي في لغته الأولى.

(2) ديفيد صمويل مار ُليوث، (مرجليوث): (1359 – 1274هـ David Samuel Margoliouth / 1858 – 1940م) كان مستشرقاً ولفترة قصيرة عمل قساً في كنيسة إنجلترا. إنجليزي يهودي، من كبار المستشرقين، متعصب ضد الإسلام، هو أحد الذين كتبوا دائرة المعارف الإسلامية. متهم بالتهويل وعدم التوثيق فيما يخص التاريخ الإسلامي. عُيّن أستاذاً للعربية في جامعة أكسفورد له كتب عن الإسلام والمسلمين، لم يكن مخلصاً فيها للعلم مات سنة 1940م من مؤلفاته : (التطورات المبكرة في الإسلام)، و(محمد ومطلع الإسلام)، و(الجامعة الإسلامية) ولكن هذه الكتابات اتسمت بالتعصب والتحيز والبعد الشديد عن الموضوعية.

(3) راجع: الهجوم على الاستشراق، ماكفي، أليكسندر، ترجمة، بشار بكور، فصلية التسامح العُمَانية، العدد الثالث والأربعون،2014.

وبعـد الحرب العالمية الثانية ظهرت ثلاثة أجيال من المستشرقين: هي جيل 1945 – 1960، وجيـل 1960 – 1990، والجيـل الحـالي 1990 – 2017. وهذه الأجيال الثلاثة التي ذكرناها بشكل تقريبي ألقت إضاءات كبيرة على تراثنا العربي الإسلامـي وتحديداً على الدراسات القرآنية والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي بشكل عام بدءاً من الفتوحات وحتى يومنا هذا. نذكر من بين أقطاب الاستشراق في هذه المرحلة مونتغمري واط، وريجيس بلاشير[1]، وهـنري كوربـان، وهنري لاوسـت، وجـاك بيرك، وكلـود كاهـين، وروجيه أرنالديز، وجورج مقدسـي، ومكسيم رودنسون، وبرنارد لويس، ومن تلاهم كجـون وانزبروف، وجوزيف فـان ايس، وميكائيل كـوك، وباتريسيا كراون، وأنجيليـكا نويفـرت، وجاكلين شابـي، وكلود جيليو، وجـيرد رودي – بوين، وتيلمـان ناجيل، وعشرات غيرهم. هذا وقد حققت الدراسات الاستشراقية إنجازات ضخمة طيلة الثلاثين أو الأربعين سنة الماضية.

ويعـود الفضـل في ذلـك إلى تجـدد مناهجها قياسـاً إلى أجيـال المستشرقين السابقـين في القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين. فالعلم تغير بطبيعة الحال وكذلك المنهج والمصطلح وحتى وسائل التواصل أصبحت متاحة أكثر مما سهل ذلك المهمات التي يريد تحقيقها المستشرقون بنزاهة وحياديّة.

ومـن أهم المشاريع الجماعيـة الكبرى في هذه الفترة نذكـر أولاً (الموسوعة الإسلامية) في طبعتها الثانية. وهي أفضل من الأولى وأكثر اتساعاً وشمولاً. إنهـا تمثل العلم الاستشراقي بالمعنى الرصين والدقيق للكلمة. ولكن لم تقف الكنيسـة الكاثوليكيـة موقفـاً إيجابيـاً أو حيادياً تجاه تلـك الدراسات التي

---

(1) ريجيس بلاشير: (1900 – 1973) كان ضليعاً في اللغة والآداب العربية من جهة وفي الدراسات القرآنية والإسلاميـة من جهة أخرى. وقد تخرجت على يديه أيضـاً كوكبة من الباحثين المسلمين والأجانب ليس أقلهم أندريه ميكل ومحمد أركون.

طالـت الديـن الإسلامي، إنما هاجمـت من قام مـن المستشرقين بمنهجية نقديـة تاريخيـة للـتراث الإسلامـي، ترافـق ذلك مـع هجوم مـوازٍ قام به المحافظـون العرب ضد الاستشراق العلمـي الخالص، وكذلك ما قام به كل من: (هاملتون جيب) الذي درس تاريخ المؤسسات الإسلامية بشكل خاص، والمستشـرق النمسـاوي (غوستـاف فون غرونبـاوم) الـذي كان تخصصه في دراسـة تاريخ الثقافة والحضـارة الإسلامية. والمستشـرق (أرندت جان وينسينك) كان قد درس الإسلام ضمن علوم الإسلام المقارنة.

وقـد كان هـذا المستشـرق وراء عملـين كبيريـن ومهمـين جـداً: الموسوعة الإسلاميـة (1913 – 1942)، والمطابقـة والإشـارات الخاصـة بالـتراث الإسلامـي (1933 – 1989). وقد طُبِعا من قبل مكتبة (ريل) الاستشراقية الشهيرة، وهي أصل كل المشاريع الاستشراقية الكبرى.[1]

وحـول العلاقة المضطربة والشائكة بين بعض المثقفين العرب والمستشرقين يقـول المفكر السـوري البارز هاشـم صالـح: (إنّ الهجمـات الشرسة على المستشرقـين، ظالمة بحكـم أن خطابهم ليس واحـداً، فــ(الغرب ليس كتلة واحدة)، كذلك المثقفين العرب؛ لذا تبقى المقارنة فاشلة هنا، ما بين الغرب والشرق).

أهداف الاستشراق

كان للمستشرقين عموماً أهداف ثلاثية (دنيوية، سياسية، دينية).

الأهـداف الدنيويّة: من أهم وأخطر أهداف المستشرقين الدنيوية هو تنبيه حكوماتهـم (الغربية) إلى محاولة السيطرة على ثروات الشرق، والسيطرة علـى ثقافـة الشـرق وتوجيه شعوبـه كيفما تريـد الحكومـات الغربية، عبر

(1) راجع: مجلة (المجلة)، العدد (227)، 9 شباط/ فبراير 2014.

طـرقٍ عدة من التشويه المتعمد من خلال المذكـرات والأفلام الوثائقية التي يقوم بإنتاجهـا المستشرقون. وكما هو الحال بالنسبـة للمستشرق الفرنسي (هانوتو) الـذي كان يعمل مستشـاراً لوزارة الاستعمـار الفرنسية، وكذلك (إدوارد هنري بالمـر) البريطاني، الذي تعلَّم العربية، وكان له نشاط علمي غزيـر، وقام برحلة إلى الشرق، وقد استغلَّت الحكومة البريطانية المعلوماتِ التـي جمَعها عن الطرق والمسالك الصحراويـة، واحتلَّت مصر 1882، وقدَ رجَـع إليها اللورد ألنبي[1]، وقد استعان بها في حملته الشهيرة من مصر إلى دمشـق خـلال الحرب العالمية الأولـى (1914 – 1918)، وهنـاك دورٌ كبير قـام بـه لورانس العـرب[2]. والذي وصَـل إلى دمشق عـام 1917 مع الجيش البريطـاني، وكان أول شـيءٍ قام بـه: زيارة قبر صلاح الديـن، ونزْع قلادة إعجـابٍ كان قد وضعها على القبر الإمبراطور الألماني وليم الثاني في زيارة له للقبر، وأخَذها معه إلى بريطانيا، وما زالت حتى اليوم في المتحف الحربي البريطاني، ومعها ملاحظة مكتوبة من لورانس تقول: (لم يَعُد صلاح الدين بحاجـة لها بعد الآن)، وكان لورانس قد درَس العربية في أكسفورد على يد مستشرق آخر مشهور هو (ديفيد جورج هوجارث).[3]

لقـد كانت العداوة الأوروبيـة للإسلام (تاريخاً حيـاً) بالنسبة إلى (إفلين

(1) إدمونـد هـنري هاينمان ألنبـي: (1861 – 1936) ضابـط وإداري بريطاني، اشتهـر بدوره في الحرب العالمية الأولى بقوة خاصة للاستيلاء على فلسطين وسوريا عامي 1917 – 1918.

(2) توماس إدوار لورانس: (16 أغسطس 1888 – 19 مايو 1935) ضابط بريطاني تخفى تحت ستار عالم آثـار بريطاني، كلفته إدارة استخبـارات الجيش البريطاني لضم القبائل العربيـة المتناثرة شرقي نهر الأردن وجنـوب سوريـا لقوات الأمير فيصل بـن الحسين لمقاتلة القوات العثمانيـة 1918. وقد نجح في ذلـك نجاحاً ساحقاً. لاحقـاً كتب لورنس سيرته الذاتية في كتاب حمل اسم أعمدة الحكمة السبعة، قال عنـه ونستـون تشرشل: (لن يظهر له مثيل مهما كانت الحاجة ماسه لـه). لقي مصرعه نتيجة سقوطه من على دراجته النارية في 19 مايو 1935م.

(3) ديفيـد هوجـارث: عالم آثـار، ولد 23 أيار/ مايو 1862 تـوفي في 6 نوفمـبر 1926، في أكسفورد المملكة المتحدة.

بارينـغ) أو اللورد كرومـر[1] أول وأخطر مندوب سـام بريطاني حكم مصر فعليـاً مـن (1883 – 1907)، في منـاخ مـن العدائيةً والحط مـن العقيدة الإسلاميـة، ويؤكد روجـر أوين المستشرق وكاتب سـيرة كرومر، أنّه في عام 1998 (وجـدت مجموعـة من الشبـاب المصريين طريقها إلـى بلدة كرومر الصغـيرة في إقليـم نوفوك مسقط رأس بارينغ، سألوا أحـد موظفي قسم الوثائق المحليين؛ أين دفن كرومر؟ ثم أضافوا: نريد أن نبصق على قبره).[2]

أمَّا الأهداف السياسية: يقوم المستشرقون (أغلبهم) بالتجسس على الشرق من أجل السيطرة على مقدراته الاقتصادية، من خلال رصد كل النشاطات في المنطقة مهما كانت قيمتها ويتم إرسالها إلى حكوماتهم ومراكز الأبحاث وحتـى أجهزة المخابرات. فقـد كان المستشرقون هم العيون السريّة لجيوش المستعمريـن في المنطقـة العربيـة. ونلاحظ أنّ مراكـز الاستشراق مرتبطة ارتباطـاً وثيقاً بمراكـز القرار في الـدول التي تدعم المستشرقـين ولا سيما الولايات المتحدة الأميركية، فرنسا، ألمانيا... إلخ. كما كان تطور الاستشراق الأكاديمـي في القـرن الـ19 مرتبطـاً بتوسع القـوى الأوروبيـة في الأراضي الإسلاميـة، كان تطـور دراسـات الشـرق الأوسـط مرتبطاً بشـدة بظهور الولايات المتحدة قوة عالمية عظمى وتورطها تورطاً أعمق في الشرق الأوسط. حيث أرسـل الوزير كولبير، أيام حكم لويس الرابع عشر (فرانسوا بيتي دي لاكروا) إلى الشرق كي يتقن اللغات العربية والفارسية والتركية، من أجل أن يشتغل عند عودته مترجماً خاصاً للملك[3]. وكان بعض المستشرقين يتخفون

(1) اللـورد كرومـر إڤلين بارن ، أول إيـرل كرومـر: (1841 – 1917) كان رجل دولـة ودبلوماسياً وإداري مستعمرات بريطانياً. وكان من كبار دعاة التغريب والاستعماريين في العالم الإسلامي وواحد من الذين وضعـوا مخطط السياسة التي جرى عليها الاستعمار ولا يـزال، في محاولة القضاء على مقومات العالم الإسلامي والأمة العربية.

(2) راجع: خير، محمد:هكذا ولد (الشرق الأوسط)، صحيفة الأخبار، 2010/8/20 ص 16.

(3) راجع: العريس، إبراهيم، صحيفة الحياة، لندن، العدد (17204) تاريخ 2010/5/12 ص 10.

تحت أسماء مستعارة للتغطية على أهدافهم الحقيقية، حيث استطاع المستشرق الهولندي، سنوك هورغرونيه[1] التخفي تحت اسم عبدالغفار وقد مكث في مكة فترة طويلة وقام بالتقاط صور لأبرز المعالم الدينية والأسواق الشعبية فيها، ثم ما لبث أن انتقل إلى إندونيسيا ومكث فيها لمدة تزيد على الـ 17 سنة وفور خروجه منها بدأ الاحتلال الهولندي لإندونيسيا، وتسربت معلومات بعد ذلك بأنّه يعمل لصالح وزارة الخارجية الهولندية.

الأهداف الدينية: ما تزال كثير من الأصوات في الغرب يفرز المقولات المعادية للآخر العربي والمسلم بصورة لا عقلانية، وتبرز جانباً مهماً للنظرة الجامدة والمشوهة عن الآخر المختلف، وأسهمت في استرجاع الكثير من الصورة النمطية والظالمة التي كانت تطرح في القرون الماضية. وكان الاستشراق المغرض وغير المنصف أسهم في ترسيخ صور كهذه، ولا شيء يثير القلق في الثقافة الغربية كنظرتها إلى الإسلام ومقاربتها له. يختار الغرب من بين الصور التي يشرف على ترويجها وصياغتها في العالم، تلك التي تشرّع رؤيته السلبية عن الإسلام[2] أن الشعور المتضخم بتفوق الغرب الأوروبي علمياً وحضارياً وعرقياً، جعل الأوروبيين يدوسون على الشعوب الأخرى -الإفريقية والآسيوية والأمريكية الهندية- ويسحقون بعنف إرادتها وكرامتها، ويزورون تاريخها ويلغون ثقافتها وحضارتها ويخاصمون دينها.

أساليب المستشرقين

يقوم المستشرقون بعملية إحياء للخلافات وتعميقها في المنطقة العربية وحتى على مستوى المذاهب الإسلامية، وجعل المنطقة تغلي على نار

(1) كرِسْتيَانْ سنُوُك هرْخُرُونْيَهْ: (1857 – 1936)، مستشرق هولندي، وباحث في ثقافة ولغات الشعوب الشرقية، ومستشار في شؤون الشعوب في الحكومة الاستعمارية في الهند الشرقية الهولندية.

(2) راجع: العليان، عبدالله، صحيفة الحياة، لندن، العدد (17128) 25 شباط/ فبراير 2010 ص 10.

الطائفيـة والمذهبية مـن أجل تنفيـذ مخططاتهم الاستعماريـة. من خلال دعـم لمجموعات محسوبة على الغرب لتكون مخلبـاً لهم في المنطقة ودعمها ماديـاً ومعنوياً. وكان اهتمام المستشرقين الغربيين بالإسلام وتاريخ المنطقة العربية واضحاً فكان منهم المحايد والموضوعي والمتآمر.

وكان لا بـد مـن الوقوف ضد أطروحـات المستشرقين الذيـن حاولوا تشويه صـورة الإسلام عـبر العصور، ولكـن لم تكن الدراسات والـردود بالمستوى المطلـوب فقد كانـت تقف بالمطلق ضـد كل ما هو استشراقـي، فقد ظهرت دراساتهـم وتحليلاتهم منبهـة ومحذرة من خطورة الاستشـراق وأن كل ما كتب من الخارج ما هو إلاّ تجنٍ وخطأ فادح بحق الإسلام وأهله.[1]

وكان مـرد ذلـك يعود إلى فهـم الغربيـين لأساليـب وأدوات تاريخية معينة في بلدانهـم وقاموا بتطبيقها في سياق إنجاز أبحاثهـم في المنطقة العربية، وفهمهـم للديـن الإسلامـي، وربما أن بعضهـم لم يكن يريـد التحامل على الإســلام مع سبـق الإصرار، مـع وجود بعضـ آخر مـن المستشرقين هدفه بالأسـاس النيـل من الإسلام. يجب أن نتوقف عند القـرار الغربي بالتوقف عـن استخـدام مصطلـح استشـراق أو كما قـال برنـارد لويسـ[2]: إنّ هذا المصطلـح قد ألقي به في مزابل التاريخ، فقـد رأى الغرب أن هذا المصطلح ينطـوي على حمـولات تاريخيـة ودلالات سلبيـة وأن هـذا المصطلح لم يعد يفـي بوصف الباحثين المتخصصين في العـالم الإسلامي، فكان من قرارات منظمـة المؤتمرات العالميـة في مؤتمرها الذي عقد في باريس عام 1973 بأنّ يتـم الاستغناء عن هـذا المصطلح، وأن يطلق على هـذه المنظمة المؤتمـرات

---

(1) راجع: الداوود، بصيرة: الاستشراق والعياذ بالله، صحيفة الحياة، اللندنية، العدد (17321)، 6 أيلول/سبتمبر 2010 ص 9.

(2) برنـارد لويس: (1916 – 2018) مؤرخ وباحث في تاريـخ الشرق الأوسط، وهو أستاذ فخري بريطاني–أمريكي لدراسات الشرق الأوسط في جامعة برنستون. توفي عن 101 سنة.

العالميـة للدراسـات الإنسانية حول آسيـا وشمال أفريقيـا ICHSANA)) .
وعقـدت المنظمـة مؤتمرين تحت هذا العنـوان إلى أن تم تغيـيره مرة ثانية
إلـى (المؤتمرات العالمية للدراسات الآسيويـة والشمال أفريقية ICANAS) .
وقد عارض هذا القرار دول الكتلة الشرقية (روسيا والدول التي كانت تدور
في فلكهـا) . فروسيا لم تغفل عن هذه المنطقـة الحيوية، فقد أرسل القيصر
الروسـي الرحالة (هلترتش حاسبر سيتزن) ، الذي قام برحلة إلى الجزيرة
العربيـة ودخل مكـة المكرمة وحصل علـى لقب حاج، وذهب بعـد ذلك إلى
اليمن حيث قتل هناك في أواخر عام 1811م.

الدّورُ الإرشاديٌّ

ثالثاً: آفاق الاستشراق

لقد تم بناء رفاه أوروبا وتقدمها بعرق الزنوج والعرب والهنود والجنس الأصفر وجثثهم، فأوروبا هي تماماً صنيعة العالم الثالث.

فرانز فانون[1]

مراحل الاستشراق (تاريخ)

مِن أبرز المراحل الّتي يُقسّم إليها الاستشراق ما ذهب إليه الدّكتور المبروك المنصوري في كتابه (الدّراسات الدّينيّة المعاصرة من المركزيّة الغربيّة إلى النّسبيّة الثّقافيّة: الاستشراق، القرآن، الهويّة والقيم الدينيّة)، إذ قسّم للاستشراق إلى ثلاث مراحل أساسيّة هي: الاستشراق الاستعماري (Co-lonial Orientalism): ويشمل كلّ ما أنتج من بداية تشكّل هذا التوجّه مع الحركة الرّومانسيّة الغربيّة (1960)، الاستشراق ما بعد الاستعماري (Post Colonial Orientalism): وهو التوجّه الّذي تشكّل في المرحلة ما بعد الاستعماريّة. ويرتكز أساساً على الجانب الثّقافيّ واللغويّ وقد تلبّس لبوساً جديداً. الاستشراق الجديد (New Orientalism): وهو التيّار الّذي تشكّل في بداية هذا القرن. وقد دشّنه كريستوف لكسنبرغ بكتابه (القراءة السّريانيّة الآراميّة للقرآن).[2]

وبعيداً عن فترة الحروب الصليبية، فقد كانت هناك علاقات تجارية قائمة

---

(1) فرانز عمر فانون: (1925 – 1961)، طبيب نفسانيّ وفيلسوف اجتماعي من مواليد فور دو فرانس – جزر المارتنيك، يعتبر أحد أبرز من كتب عن مناهضة الآخرين في القرن العشرين.

(2) راجع: المنصوري، المبروك: الدّراسات الدّينيّة المعاصرة من المركزيّة الغربيّة إلى النّسبيّة الثّقافيّة: الاستشراق، القرآن، الهويّة والقيم الدّينيّة، تونس، الدّار المتوسّطيّة للنّشر، 2010.

بــين الشــرق والغرب حتى بداية القــرن الثامن عشر، من هنــا أصبح سحر الشرق يطغى على اهتمامات الغربيين ساسة وباحثين.

وهنــاك أسمــاء لهــا وقع خاصــ قد اهتمــت بالشــرق، مثل: أنطــوان غالان (1704)[1] الــذي ترجم للفرنسية لأول مرة قصص (ألف ليلة وليلة)، والتي ربمــا زادت من شغف الأوروبيين لاكتشاف ذلك المجهول الشرقي والتخطيط لاستعماره. ومونتسكيو[2] الذي اتجه إلى كتابة (الرسائل الفارسية)، وفي هذا الإطــار وقعَ بعض الكُتاب أســرى الشرق ومنهم المسافر الكبير اللورد بايرون (1788 – 1824) الذي زار مصر وألبانيا واليونان والإمبراطورية العثمانية، وقد كتب (جياوور وعروس أبيدوس والقرصان ولارا) أما فيكتور هوجو فكتب (المشرقيــات) 1829، بينما اكتشف جوته الشعــر الفارسي من خلال أشعار حافظ الشيرازي فألّف ديوانه الأخير (الديوان الغربي الشرقي).[3]

أمَّا بعد فقد جاء تيوفيل جوتييه وكتب روايته الموسومة بـ(المومياء) (1857).

وهنـاك فئة مــن (المستشرقين) لم تشتهر إلا برسومها ولوحاتها التي تصور الحيــاة والنــاســ في الشرق، حيث احتــل التصوير الفوتوغــرافي مكاناً ثابتاً في البعثــات العلميــة الغربية بعد سنوات قليلة مــن اكتشافه. فقد كان بعض المستشرقــين ينظرون إلى الشرق من منظــور (جنسي) خالص، جوارٍ وهن يرتديــن الحجاب الشفاف أو سروالاً طويلاً، ولكــن وفي زمن ازدهار العالم الإسلامي، كانت أوروبا متخلفة ثقافياً واقتصادياً وعسكرياً ومرغمة تقريباً

(1) أنطوان غالان: (1646 – 1715 م) هو مستشرق فرنسي، يشتهر بترجمته لكتاب ألف ليلة وليلة.

(2) شــارل لوي دي سيكوندا المعروف باسم مونتيسكيــو: (1689 – 1755) فيلسوف فرنسي صاحب نظرية فصــل السلطــات الذي تعتمده غالبية الأنظمة حالياً. ولد مونتسكيــو في جنوب غرب فرنسا بالقرب من مدينة بوردو حيث تعلّم الحقوق وأصبح عضو برلمان عام 1714.

(3) راجع: حسني، د. إيناس: الاستشراق وسحر حضارة الشرق، الكتاب الشهري لمجلة دبي الثقافية (62)، مايو/أيار 2012 ص 15.

علــى الدفاع عن نفسها. كانت على الأقــل خائفة من الشرق الذي استلهمت منه معرفته وأبحاثه مبكراً. زودت الأعداد المتزايدة من المطبوعات المصورة وكتــب الرحــلات والمخطوطات المهندســين والمصورين والكتــاب الأوروبيين ثروة من المواد عن التاريخ والعمارة وأسلوب الحياة في الدول الإسلامية.[1]

فالاستشــراق يُعتبر حديــث الظهــور إلا أنّ معرفة الشرق ومــا يتعلّق به من أفكار فذلك يعود إلى الأزمان الغابرة، ويؤيّد ذلك ما عثر عليه في التنقيبات من النقوش الأثرية على الأحجار، ثمّ تلت ذلك حركة الاستشراق في القرون الوسطــى، لتؤكّد ذلك من خلال الوقائع التاريخيــة والنصوص الجغرافية، وكتب الأسفار وغيرها.

الجيل الجديد

ومنــذ أواخر القرن السابع عشر الميلادي أصبحت مدينتا لندن وباريس من المراكز الرئيسة في تدريس الاستشراق، ثمّ توسّع حتّى أصبحت أكثر البلدان الأوروبية في الوقت الحاضر لديها معاهد خاصّة بتدريس الاستشراق بجميع أقسامه، وتخرّج في كلّ عام أعداداً كبيرة من الأساتذة، الذين يغذّون البحوث والدراسات في أوروبا في مجال الاستشراق. ولكن موضوعات الاستشراق مع بداية القرن العشرين وتعقيداته السياسية بدأت تختفي شيئاً فشيئاً.

ولكن هل من علوم رافدة أو مساعدة للاستشراق؟ فالكاتب المغربي مصطفى بــو عناني في مقالة له ذكر فيها علوم الاستشراق ومن بينها (السيميائيات، واللسانيــات) باعتبارها تدرس مواضيع تجريدية لذاتهــا، وما هي أنماط الاستشراق الجديدة؟ فالصورة النمطيــة في أذهان الشرقيين للمستشرق، دارســ، غربــي في العالم الشرقــي يكتب، فمثــلاً (برنارد لويس بــدأ يحفر

---

(1) راجع: غريب، سمير، صحيفة الحياة، اللندنية، العدد (16944) 25 أب/أغسطس 2009 ص 18.

وينقب في أرشيف الدولة العثمانية ويكتب عن الشرق والإسلام، فأحواض التفكر قد قضت على صورة أو أعادت رسم للمستشرق النمطية في أذهان الشرقيين، ولكنها تمارس دوراً مكملاً للمستشرقين التقليديين، فهنا يؤكد الحاكم المدني الأمريكي للعراق (بول بريمر) ما بعد الاحتلال الأمريكي (2004)، (عندما دخلت إلى مكتبي في بغداد وجدت على الطاولة، ورقة مكتوباً عليها التعليمات التي يجب عليّ اتباعها لإدارة دفة الحكم في العراق)[1]. لقد كانت الحرب على العراق (2003) التي قادها جورج بوش عبر إرشادات بعض رموز الاستشراق المعتوهين أمثال (برنارد لويس، فؤاد عجمي)[2]، غذتها نوازع قديمة تكونت لديهم فكرة ثابتة عن الشرق والإسلام وربطه (بالإرهاب)، ولكن تبين بأنّهم من ورطوا الإدارة الأمريكية، حيث لم يستطيعوا سبر أغوار الشرق، فكان أن دمر الاستشراق وعبر المستشرقين آلاف الضحايا، واستخدم ضدهم أبشع أساليب الديمقراطية الغربية في أبو غريب (العراقي). فكان عملاً لا يمت إلى الإنسانية بصلة. هكذا أراد القائمون عليه أن يتم إخراجه للعالم.

لقد كانت للحرب على العراق أكثر من ذراع عسكرية واقتصادية وثقافية. والمفارقة أنّ تلك الخطة قام بإعدادها مؤسسة (راند) الأمريكية حيث يعود تاريخ تأسيسها إلى نهاية الأربعينات من القرن الماضي، وهناك مؤسسة (بروكينغز) أسست عام 1916، إضافة إلى (أميركان أنتر برايز). وكلها مراكز تهتم وتغذي المستشرقين فكرياً بالمعلومات الضرورية لقيامهم بما يسند إليهم من مهام خارج أوطانهم. حيث لم يبق الاستشراق الذي انطلقت

(1) راجع: بريمر، بول، عام قضيته في العراق، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى 2006، ص 74.

(2) فؤاد عجمي: (1945 – 2014)، أستاذ جامعي وكاتب سياسي لبناني أمريكي. وهو من الأصوات التي تساند تيار المحافظين الجدد وسياستهم الخارجية وخاصة في العراق. وهو مدير (برنامج دراسات الشرق الأوسط) وأستاذ في جامعة جونز هوبكنز في الولايات المتحدة. توفي سنة 2014.

أولـى حملاتـه في القرن الثامن عشـر أسيراً لتلك الأجـواء السائدة آنذاك فقد عُلمنت بنى الفكر الموروثة عن الماضي وتوسعت الهيمنة الأوروبية، ومن ثـم تم تحويـل صورة العـدو المسلم إلى الصـورة الحديثـة للشرقي. عندها ظهـر أوائـل المستشرقـين المحدثـين: الفرنسـي Anquetil– Duperron الـذي اكتشف النصوص الأفستيـة Avestan Texts وترجمها، والإنكليزي السير ويليام جونـز Sir William Jones الذي ترجم الشعر السنسيكريتي، والقوانـين الهندية، والذي كان متمكناً لتـوه من العربية والعبرية والفارسية قبـل أن يغادر إنكلـترا إلى الهند عام 1783. وبعد جيل جاء غزو أوروبي من أجل تنفيذ أجندات الدول الغربية في الشرق.

إنّ الاحتـلال الفرنسـي لمصر عام 1798 لم يكن حادثـاً من حوادث حروب الثـورة الفرنسية فقـط. ولكنه كان حركـة من حركات الخيـال أيضاً؛ فقد قرأ بونابـرت كتاب الكونت دوفولنـي (Comte de Volney رحلة في مصر وسوريـة Voyage en Egypte et en Syrie) وكتابـات أخـرى عـن مصر، وساعـده ذلك على تكويـن تصرفاته هناك: لقد كان على وعـي بِأَنَّ أربعين قرنـاً كانت تزدريه وجنوده معاً: ظن في نفسه أنه أتى ليعيد الحياة إلى عالم ميـت. وقد قام الباحثـون والعلماء الذيـن صاحبوه بـأول عملية تخصيص لمجتمع وثقافة شرقيين.

إنّمـا يحـاول المستشرقون الاستفادة من التطـور الحاصل في المجال المعرفي وحتـى التكنولوجي من أجل إنتـاج جيل (استشراقي) جديـد من الباحثين يحـاول مواءمـة التطـورات الحالية مـع أهـداف المستشرقـين الجدد. من أجـل إنتاج جيـل جديد مـن المستشرقين بأهـداف قديمـة ووسائل جديدة أكـثر تطـوراً وقبولاً. وبالتالي الدخول في صراع جديـد سيكون أكثر شراسة مـع تغـير في المفاهيـم والوسائـل والمجـالات. وكأننـا أمـام أفـكار هدامة

مهمتهـا تفريغ الحضـارات من محتواهـا، كما الترويج المشـوه الذي يتبناه بعض المستشرقين عـبر أفكار ثابتـة، كالقـول إنّ الإسلام فرقـة مسيحية (بيكـر)، أو إن المسلمين اليوم محتاجون إلـى أن يُنقذوا من طرف البعثات التبشيريـة المسيحيـة (ماكدونالـد)، أو إن الدعوة الإسلاميـة الإصلاحية (panislamism) (وباء) أو (خطر داهم) يلزم معارضته (برفض حازم) (سنوك هورغرونيه)، تلك الأفكار الهدامة والمتطرفة تدل على عمى معرفي ومنهجي وخلـل في فهم الأديان، لا بل تكشف عن تطرف وعنصرية من قبل أشخاص يعتبرون أنفسهم في قمة الوعي الأوروبي؛ وهؤلاء على وعي تام بكل ما يكتبونه، وليس لديهم غياب معرفي أو تاريخي، لكنهم يترصدون الفرصة لإثبـات كل مـا هو سيئ بحق الشـرق وشعوبه[1]. وهنا يمكـن إدراج الرحالة (ميريل سيلا) الأمريكي، ضمن المستشرقين الباحثين الجواسيس، وهو من علماء الآثار الكتابيين الذين قصدوا (الأراضي المقدسة) بحثاً عن جغرافيا الكتاب المقدس، التي كانت تشغل رجال الدين الأنغليكان بشكل خاص. حيث عينت الجمعيـة الأمريكية لاستكشاف فلسطين (ميريل سيلا) في العشرين مـن شهر تشرين الأول من عام 1874 كعالم آثار لديها، فأبحر من نيويورك في التاسـع من حزيران/يونيو 1875، حيث وصل بيروت، ومن ثم ألف كتاباً يتحدث عن مشاهداته بعنوان (شرقي الأردن)، ويقال إنّ له موقفاً معارضاً عندما كان يعمـل كقنصل في سفارة الولايات المتحدة في القدس، حيث كان مـن أشد المعارضين للاستيطان اليهـودي (الزراعي) في فلسطين الذي بدأ في الربـع الأخـير من القـرن العشرين. عـاد (ميريل سيلا) إلـى الولايات المتحـدة في صيـف 1877، ليكتـب التقارير عـن العمليات التي قـام بها في فلسطـين وليساعد رودولف ميئير، مهندس الجمعية في رسم الخرائط التي

(1) راجع: حميش، بنسالم، مجلة الوحدة، الرباط، العدد (96) أيلول/سبتمبر 1992 ص 104.

تخص مناطق شرقي الأردن[1]. وها هي المستشرقة البريطانية (جيرتروود بيل) تمكنت أثناء الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918)، من رفع تقارير ميدانية للحكومة البريطانية عن سير المعارك، وكان لها دور بارز في جعل الشريف حسين يقف إلى جانب البريطانيين ضد العثمانيين، وكانت حجّةً في كل ما يتعلق بالقبائل والعشائر العربية ورؤسائها. وقد كان رجال الساسّة والعسكر البريطانيون (السير بيرسي كوكس)[2]، الجنرال جورج ماكمن، يقدرون (جيرتروود بيل) لمواقفها من الإمبراطورية البريطانية. كانت إحدى بنات الحقبة الاستعمارية من المستشرقات[3]. حيث كان للمستشرقين دور كبير في تشويه تاريخ فلسطين، فالقراءات الاستشراقية للتاريخ، طابقت تعسّفاً بين تاريخ فلسطين وأحداث التوراة، فقد رأى بعض المستشرقين أن التوراة كمصدر تأريخي، أُوّلت تأويلاً يهدف إلى صناعة مادة تاريخية مزوّرة، تجعل فلسطين مسرحاً للتاريخ اليهودي- وبالتالي أرض إسرائيل الموعودة[4]. إذاً خضع التأريخ لفلسطين لقراءة استشراقية مزورة. ذلك شكّل ردة فعل لدى إدوارد سعيد وكان كتابه موجهاً لتلك الفئة من المستشرقين بشكل خاص وللمستشرقين الذين ساهموا في بناء الإمبراطورية الغربية على مدى قرنين مشكلين ما يعرف بالشرق الأوسط، واليوم يعملون على تقسيمه!

---

(1) راجع: خلف، تيسير، صحيفة تشرين، العدد (16) أيار/مايو 2010 ص23.

(2) بيرسي كوكس: (1864 – 1937) سياسي بريطاني ساهم في رسم السياسة البريطانية في الوطن العربي بعد انهيار الدولة العثمانية، حيث شارك قوات الثورة العربية الكبرى في محاربة قوات الدولة العثمانية. ولقد عمل بمنصب المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي وكانت تربطه علاقات ودية ببعض القبائل في الجزيرة العربية.

(3) راجع: جيرتروود بيل (من أوراقها الشخصية)، إليزابيت بيرغوين، ترجمة نمير عباس مظفر، مجلة المشاهد السياسي، لندن، العدد (394) 28 سبتمبر/ أيلول 2003 ص50.

(4) راجع: السقا، علي: التوراة جاءت من اليمن، صحيفة الأخبار، 27 أب/أغسطس 2010 ص 17.

رابعاً: المستشرقون الحقيقيون: مدارس

> إنّ القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا.

غاردنر[1]

المدارس الاستشراقية

اهتمَّت الدراسات الاستشراقية بجميعِ الجوانب الحضارية، والسياسية، والفلسفية، والدينية، والاقتصادية... إلخ، فكان لكلٍّ مدرسةٍ توجهاتها التي تأتيها من مراجعها العليا في الدول الكونيالية (الاستعمارية)، فكان الاهتمام بكل جوانب الحياة الشرقية بدءاً من اللغة مروراً بالتراث والفن الشرقي وصولاً إلى الاهتمام الأكبر بالأديان وخصوصاً الدين الإسلامي، ففرنسا أنشأت مدرستي (ريمس) و(شارتر) للاستشراق، وكذلك فعل الألمان والهولنديون والروس والأمريكان فلكل دولة مستشرقوها ومجال عملهم يُحدد بدقة متناهية. حيث الاعتماد على اللغة العربية بالنسبة للمستشرقين في بحوثهم وتعاملهم مع السكان. وكان من أبرز أساتذة مدرسة اللغات الشرقية الفرنسية الذين كانوا علماء حقيقيين: (جوبير)، (رينوه)، (ديفريمري)، ومن أشهرهم (سلفستر دي ساسي).[2]

حيث يعترف جميع المؤرخين على أن البارون أنطوان إيزاك سلفستر دي

---

(1) غاردنر: عالم نفس أمريكي ولد 1943 في سكرانتون، بنسلفانيا بأمريكا وهو أستاذ الإدراك والتعليم في جامعة هارفارد في كلية الدراسات العليا. عرف بنظريته حول نظرية الذكاءات المتعددة.

(2) أنطوان إيزاك سِلفستر دي ساسي (دو ساسي): (1758 – 1838) هو مستشرق فرنسي، لقّبه البدوي بـ(شيخ المستشرقين الفرنسيين)، درس اليونانية واللاتينية ثم العربية والعبرية. كما أتقن عدة لغات أوروبية. اهتم بالأدب والنحو مبتعداً عن الخوض في الدراسات الإسلامية، وإليه يرجع الفضل في جعل باريس مركزاً للدراسات العربية، وكان ممن اتصل به رفاعة الطهطاوي.

ساسـي، هو الذي أسس الاستشراق بمعناه العملي، مثلما أسسه إدوار لين في إنجلترا. وكان المستشرقون واللغويون الألمان يطلبون مشورته ومنهم: الأخوان شليغل، وهمبولدت، وفرانز بوب وغيرهم. كما ساهم في تكوين فون هومبولت الذي تأثر به العالم الكبير تشومسكي، وأسس على أثره فلسفته في علم اللغة؛ متأثراً بالمدرسة الفرنسية في القرن السابع عشر.

وكان المستعرب سلفستر دي ساسي قد ترجم عدداً من الكتب التراثية إلى الفرنسية منها: فريد الدين العطار، وأحمد بن علي المقريزي، ومقامات الحريري، وحياة المتصوفة، وكليلة ودمنة، وترجمة الإنجيل إلى السريانية والعربية. وبذلك يعتبر (دي ساسي) المؤسس (العلمي) للاستشراق الغربي، بينما يعتبر أرنست رينان ممثل الاستمرارية، بمعنى الاستمرارية الأثرية إذا صح التعبير، لأنها تستند إلى حفريات اللغة وبواطنها. فاللغة لدى رينان والفيلولوجيا (علمها)، هو العلم الدقيق للموجودات الذهنية.[1]

إذاً الاستشراق الفرنسي قد بدأ في القرن السابع عشر، ومرّ بمراحل وتحولات عدة وصلت ذروتها في نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر. وقد شهد القرن العشرون ظهور شخصيات استشراقية كبيرة في فرنسا من أمثال: لويس ماسينيون، أو ريجيس بلاشير، أو روجيه أرنالديز، أو مكسيم رودنسون، أو كلود كاهين، أو جاك بيرك، أو شارل بيلا، أو هنري لاوست، أو لويس غارديه، أو هنري كوربان، إلخ. أندريه ميكل. فانسان مونتيل، الذي اعتنق الإسلام من شدة حبه لتراثه الروحي والفكري فأصبح اسمه فانسان منصور مونتيل. وقد تُوُفّيَ قبل أعوام قلائل عن عمر يناهز التسعين.[2]

---

(1) راجع: صحيفة البيان، الإماراتية: الإسلام في عيون المستشرقين، تاريخ 2010/8/28.

(2) راجع: صالح، هاشم: دفاع عن الاستشراق، صحيفة الشرق الأوسط، لندن، العدد (11356) 31 كانون الأول/ ديسمبر 2009.

وكان بعض المستشرقين الفرنسيين متعصبين وذوي نزعة قومية ودينية غربية، ومنهم أرنست رينان[1]. حيث يُعتبر المستشرق والمؤرخ وعالم اللغة الفرنسي أرنست رينان (Ernest Renan 1823 – 1892) من بين المستشرقين الأوروبيين الذين درسوا الإسلام من خارجه، وأسسوا لنظريات استشراقية تختزن رؤى استعلائية تجاه الحضارة الإسلامية وما نتج عنها من علوم ولاسيما في مضمار الإنتاج الفلسفي.[2]

حيث يصف (زكاري لوكمان) في كتابه (تاريخ الاستشراق وسياساته.. الصراع على تفسير الشرق الأوسط)، النظرة المتعالية المغشوشة لبعض المستشرقين تجاه الدين الإسلامي، حيث دلّل على ذلك من خلال محاضرة لإرنست رينان الفيلولوجي وباحث الأديان الشهير، ففي محاضرة له في جامعة السوربون بتاريخ 1883/3/29 بعنوان (الإسلام والعلم) بدا واضحاً كيفية التمايز الاجتماعي والحضاري التي تبناها (رينان) وكثير من الباحثين، وبالتالي تمكننا هذه المحاضرة من أن نتعرف بوضوح على كيفية فهم كثير من المستشرقين ومثقفين آخرين وكذلك فهم الموظفين الحكوميين والجمهور المتعلم للإسلام المعاصر في تلك الفترة.[3]

فقد كتب (رينان) منتقداً الدين الإسلامي، وقد حاججه بعض المفكرين أمثال (جمال الدين الأفغاني)[4]. والرد عليه في صحيفة (لوديبLe Débat 1883/5/18).

(1) أرنست رينان: ولد عام 1822 بمقاطعة (بريتاني) بفرنسا، ووهب جلَّ اهتمامه للبحث العلمي العقلي، وكان رينان أكثر عنصرية وبغضاء تجاه الدين الإسلامي.

(2) راجع: فرج، ريتا: الساميون والإسلام في الاستشراق العنصري عند أرنست رينان، صحيفة الحياة، اللندنية، تاريخ 2015/4/15.

(3) راجع: أمين، إميل: الاستشراق والإسلام.. إعادة قراءة لإشكال تاريخي، صحيفة الشرق الأوسط، العدد (11802) 22 آذار/مارس 2011.

(4) محمد جمال الدين بن السيد صفتر الحسيني أو الأفغاني أو الأسد آبادي: (1838 – 1897)، ولد في أفغانستان، أحد الأعلام البارزين في النهضة المصرية ومن أعلام الفكر الإسلامي بالنسبة للتجديد. توفي في الأستانة.

وقد نشــط مستشرقون آخرون وكتبوا بعقلية متعصبة ضد الشرق والإسلام وكانــوا ضمن لوحة استشراقية فرنسية موجهة من قادة سياسيين: (ميشيل سكــوت)[1]. و(ألبــير الكبــير)[2]. و(توماســ داكويــن – الأكوينـــي)، الذين كانــوا نتاج مدرســة الاستشراق الفرنسيــة. ولا ننسى المستشــرق الفرنسي البــارز، ليفي بروفنسال[3]، الذي جاب المنطقة العربية وكان له اهتمام كبير بالمخطوطــات العربية والمساهمة في نشرها على نطاق واسع، وقد ألقى عدد من المحاضرات في مصر، وكان له موقف معتدل تجاه قضايا الشرق عموماً، وموقفه إيجابي تجاه الدين الإسلامي أيضاً.

ومــن المستشرقين الذين انتقدوا الرؤية الإسلامية: ريمون شارل وكلود ليفي شتراوســ[4] وأيضاً غوبينو، زعيم النظريــات العنصرية، الذي تولّع بالشرق من خــلال مطالعته كتب الرحالة، إضافة إلى جــورج بوسكي، فمن المؤسف حقــاً أنّ مؤلفات هــؤلاء تعتبر مراجع أساسية يعتمــد عليها الآخر في تكوين نظــرة حول الإســلام والكائن المسلــم، لا بل أن هناك مــن الباحثين العرب مــن يتشدقون بهذه الكتابات ويتخذونها حجة دامغة لممارسة الجلد الذاتي، متسلحــين في ذلــك بموضوعيــة مستشرقين لبســوا جبة العلــم، ولكن كانوا بالأساس مجرد مرشدين للحملات العسكرية تجاه الشرق.[5]

(1) مايــكل سكــوت: اسكتلندي عاشــ تقريباً بين عامــي (1175 – 1235) باحث ورياضــي وطبيب ومنجم وترجم عددا من أعمال أرسطو من العربية والعبرية.

(2) ألــبرت الكبــير: (1206 – 1280م)، فيلســوف لاهوتــي ألماني، وعــالم موسوعي، وأستــاذ القديس توما الإكوينــي ولــد ألبرت الكبير في بافارية. ودرس في جامعة بولونيــة ثم في جامعة بادوفة، وفي هذه المدينة انضم إلى رهبنة الدومينكان. وتوفي بعد حياة حافلة في كولونيا بألمانية.

(3) ليفي بروفنسال: (1894 – 1955): مستشرق فرنسي الأصل، ولد في الجزائر، خدم في الجيش الفرنسي أثناء حرب الدردنيل، عضو المجمع العلمي العربي بدمشق، واللغوي بالقاهرة، توفي في باريس.

(4) كلــود ليفــي ستروســ: (1908 – 2009)، عالم اجتماع فرنســي، يعد من أهم البنيويــين المعاصرين، له دراسات تتعلق بالأساطير، والفلسفة والقانون. باحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

(5) راجع: موسى، آمال: الساسّة المستشرقون، صحيفة الشرق الأوسط، لندن، العدد (8629)، 14 شباط/ فبراير 2002.

وقـد نشط المستشرقون في معظم البلاد الغربية (هولندا، بريطانيا، ألمانيا، فرنسا، أمريـكا... إلخ)، وفي الولايات المتحدة الأمريكية على وجه التحديد حيث هناك العشـرات من مراكز الأبحاث والمعاهـد الاستشراقية الكبرى، وينشط المستشرقون في المنطقة العربية من خلال تولي عدد من أبناء المنطقة والذيـن درسوا في الغرب وربمـا تأثروا بأفكار أولئـك المستشرقين مناصب حساسـة في بلدانهـم الأصلية، وكان لبعضـ هؤلاء تأثير واضـح على بعض مـن توجهـات السياسات في بعض الـدول لصالـح دول الاستشراق. في تلك الفترة أيضاً أسست بريطانيا (القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية) عـام 1938، كما تأسَّس المجلس الثقافي البريطاني الذي فتَح فروعاً في كثيرٍ مـن العواصم العربية؛ بهـدف نشْر الثقافة البريطانيـة، وإيجاد صلات مع الشعوب العربية على أوسع نطاق.

كان الهـدف العسكـري من وراء هـذه المؤسَّسات، منافسـة الإعلام الألماني والإيطالي الموجَّه للمنطقة العربية.

بعـد ذلـك بسنـوات – أي: عـام 1944 – تأسَّـس في القدس أهـم مركـز للمستشرقـين البريطانيين في الشرق الأوسط، وهـو المركز الذي سيكون له صيـتٌ كبير في العقود اللاحقة، وسوف تُثار حوله الشُّبهات والخلافات، إنه مركز الشرق الأوسط للدراسات العربية أو ما يُعرف بـــ(ميكاس).

ولم يَـدُمْ مركـز ميكاسـ في القدس سوى أربـع سنوات؛ حيـث تَمَّ نقله قُبيل انـدلاع حرب 48 إلى لبنان، وتحديداً إلـى قرية شملان؛ حيث أصبح يُعرَف باسمهـا، وهنـاك اشتَهر وتكوَّن اسمه والخبرات التـي صار يُعرَف بها وكان المسؤول عن معهد شملان المستشرق البريطاني (لزلي ماكلوخلين)[1]. وقيل

(1) لـزلي ماكلوخلـين: أكاديمي بريطاني (مستعـرب) أشرف على إدارة معهد أو مركـز شملان في (قضاء الشـوف) بـيروت الذي يعتـبر مدرسة لتعلـم اللغة العربيـة وقد أنشأهـا البريطانيـون في القدس عام

إنَّ هــذا المركز يُخَـرِج سنوياً عشــرات الجواسيس الناطقــين بالعربية وهو يعمل تحت ستار تعليم العربية لغير الناطقين بها من الأوروبيين.

أمَّــا ما هــو الزمن الذي أخذ فيــه الاستشراق نموّه الحقيقــي، وأصبح علماً يُدرّس، فيمكن القول: إنّ المساعي التي بذلها الباحثون من إيطاليا وبريطانيا والبرتغــال لدراســة الشرق، كانت في القرن الخامس عشــر والسادس عشر الميــلادي، وقــد شهِد الاستشــراق في القرنين السادس عشــر والسابع عشر ازدهــاراً في النواحي العلمية والدراسية المتخصصــة، ففي القرن السادس عشــر –وتحديداً عام 1539م– تَمَّ إنشاء أول كرسي للغة العربية في الكوليج دي فرانســ في باريســ، وشغَــل هذا الكرســي جيوم بوستــل Gguillaume Postel (1510 – 1581) ، الــذي يُعــد أول المستشرقــين الحقيقيــين، وقد أسهــم كثــيراً في إثراء دراسة اللغات والشعــوب الشرقية في أوروبا، جمع في الوقــت نفسه –وهو في الشــرق– مجموعة هامة من المخطوطــات، وقد سار علــى نهجه تلميــذه جوزيف إسكاليجــر Joseph Scaliger. وكان من بينهم على سبيل المثال توماس هربرت.

لقــد كان هناك أثــر واضح للشرق وجاذبيته بشــكل أو بآخر حتى في الفنون الأوروبية كافة، إذ نجد ذلك جلياً بوضوح في منجزات المهندسين المعماريين مــن أمثــال: شارل لويس بلــزاك، باسكال كوســت، أمبرواز بــودري، شارل كورنــو (1815 – 1904) ، بالإضافــة إلــى النحاتــين أنطــوان لويــس باربي (1795 – 1875) ، وشــارل كورديــي (1827 – 1912) ، وتيــودور ريفيــير (1857 – 1912) ، تيودور ديك (1846 – 1904) .[1]

أمَّــا المدرسة الإسبانيــة إن صحّ نعتها بهذا الاسم، فقــد ظهرت تحت عنوان

1944ومــن ثم نقلــت إلى بيروت بسبب حرب فلسطــين 1948. وقد أُعتبر المركز (عشــاً للجواسيس) . ولاسيما أنه يتبع لوزارة الخارجية البريطانية.

(1) راجع: حسني، د. إيناس: الاستشراق وسحر حضارة الشرق، الكتاب الشهري لمجلة دبي الثقافية (62) ، مايو/أيار 2012 ص 22.

(الاستعراب)، وكان للملك الإسباني (ألفونسو) العاشر دور بارز في تأسيس الفكـر الاستشراقـي الإسباني، ولتبـدأ جذورها بعد الفتـح الإسلامي لشبه جزيرة إيبيريا، أي بعد سنة (711م)، ولتكون أقدم حركات الاستشراق على الإطـلاق، وهي حركة قامت على محاربة العقـل المسلم، وتمّ تكليف عدد من المستعربـين المكلفين من لدن (الكنيسة) أمثال: يوحنا الأشقوبي الذي ترجم القـرآن وأصدر كتابـه (طعن المسلمين بسيف الـروح). ورايموند مارتينيت، الـذي أنشأ مدرسة بتونس لتخريـج المبشرين الذين يجادلون المسلمين، ومن كتبه (خنجر الإيمان في صدور المسلمين واليهود). وبطرس القلعاوي، وهو أول من عمل قاموساً إسبانياً عربياً باللهجة الغرناطية[1]. ولا يفوتنا أن نذكر بأنّه لا يوجـد في العالم أمة أحرقت كتـب غيرها من الأمم أكثر من إسبانيا، ففي غرناطة وحدها أُحرق أكثر مـن مليون مخطوطة عربية، وآلاف المخطوطات الأندلسية المكتوبة بالحروف اللاتينية (الأعجمية Aljamiado).

ونلاحظ بِأَنَّ مصطلح الاستعراب الإسباني ظهر في الاستشراق الإسباني لما تتميـز به من أصول تاريخية عربيـة إسلامية. وقد رفض كثير من المفكرين الإسبـان نعتهم بالمستشرقـين وفضلوا كلمة الاستعـراب (Arabists). فقد عمـل بعضـ المفكريـن الإسبان علـى ترجمة أعمـال كبار المفكريـن الذين يعتـبرون من رواد الفكـر الأندلسي (ابن رشد، ابن طفيـل، ابن ماجه، ابن حزم).[2]

وكذلك ترجم فيلسوف إسبانيا (خوسي أورتيغا أي غاسيت) طوق الحمامة لابن حزم. ولا يمكن إطلاق أحكام نهائية بشأن موقف المستشرقين الإسبان مـن الشرق عمومـاً والإسلام خصوصـاً فقد كان هنـاك مفكـرون معتدلون

---

(1) راجـع: ثقفـان، د. عبـدالله : الاستعراب الإسبـاني (جذور وتاريـخ)، المجلة العربيـة، الرياض، العدد (419) تشرين الثاني/ نوفمبر 2011 ص 7.

(2) راجـع: خلف أحمـد، عبدالباقي: تمازج حضاري وحوار ثقافي، المجلة العربيـة، الرياض، العدد (419) نوفمبر 2011 ص 9.

في آرائهم أمثال: أميركو كاسترو (973 - 1885) صاحب كتاب (آثار الإسلام) الذي عرّف فيه بفضل الإسلام على الحضارة الغربية. وكذلك: خوليان ريبيرا، وأسين بلاثيوس الذين قدموا خدمات جليلة دون انحياز. وها هو المستعرب خوان بيرنط يصف في كتابه (محمد) الذي تناول سيرته بِأَنّه (الصادق الأمين).

ولذلك لا يمكن نكران الخدمات والتعريفات الهامة التي قدمها العلماء والمفكرون الإسبان للحضارة العربية عبر الإضاءة على أعمال المفكرين العرب ونشرها في أوروبا.

وبالانتقال إلى الاستشراق في دول أوروبا الشرقية؛ فإنّ قسم الاستشراق قد تأسس في كلية اللغات والآداب بجامعة بلغراد في سنة 1925. فقد كانت رومانيا ترفض التعاون مع الدول العربية، وترفض كل ما هو شرقي إلى أن زالت آثار الحروب بين رومانيا والدولة العثمانية، أي منذ الخمسينات من القرن الماضي. فقد تأسس معهد الاستشراق الذي كان الوحيد من نوعه في يوغسلافيا التيتوية (نسبة إلى مؤسس يوغسلافيا جوزيف بروز تيتيو)، ذلك أعطى الاستشراق البوسني زخماً جديداً ببروز جيل جديد من المستشرقين الدارسين والمترجمين للأدب العربي (سليمان غروزدانيتش... إلخ)، وقد جاء الجيل الثاني من تلاميذ (غروزدانيتش)، كما هو الأمر مع (أسعد دوراكوفيتش) رئيس قسم الاستشراق في جامعة سراييفو الذي ترجم مختارات شعرية عدة من امرئ القيس حتى محمود درويش.[1]

أَمَّا في صربيا على سبيل المثال فقد كان لبعض المستشرقين دور بارز وشنيع في الحض على الإبادة الجماعية تجاه مسلمي يوغسلافيا السابقة (سراييفو)،

---

(1) راجع: محمد م. الأرناؤوط، صحيفة الحياة، اللندنية، العدد (17364)، 19 تشرين الأول/أكتوبر 2010 ص 19.

علـى المستوى العسكـري، وحتى على المستوى الثقافي علـى الصعيد العالمي، وخير مثال علـى تلك الآراء المتطرفـة: (نيجوش)، و(بيفتيتشـس)، و(وايفو اندريتش) والمفارقـة أنه حاصل علـى نوبل للسلام سنـة 1961، وقد صور جميعهـم الإسلام بأنّـه شديد القتامة. فقد كان الاستشـراق في بلغراد وما زال متجهاً اتجاهاً شديداً نحو الآيديولوجيا، ولأن ذلك الاستشراق كان وما زال متمسـكاً بالمركزية الأوروبيـة، وكان يبرر المجازر -لا بـل شجع عليها- التـي وقعت بحق البشانقـة المسلمين في البوسنة والهرسـك من قبل صربيا والجبـل الأسـود وكرواتيـا (1992 - 1995) وهذا فقـط لكونهم مسلمين. وأنّ الاستشـراق في البوسنـة قد بـدأ نشاطه بصورة منظمـة عندما أُسس قسـم الاستشراق بكلية اللغـات والآداب في سراييفو سنـة 1950 وبتأسيس معهـد الاستشراق في نفسـ السنة ونفس المدينة[1]. وعلـى ذلك يمكن القول إن (الاستشـراق البوسنـوي) منذ انطلاقتـه المؤسسيـة والعملية في 1950 أخـذ بعداً يميزه عن الاستشـراق الأوروبي بالمعنى المألوف للكلمة. فقد كلّف المعهد بـ(جمـع ونشر المخطوطات الشرقية) التي (تتعلـق بتاريخ البوسنة) و(دراسة اللغـات العربية والتركية والفارسية وتأثيرهـا في اللغة البوسنوية وثقافتها) و(دراسة ثقافة البوسنة في اللغات الشرقية)، أي أن (الاستشراق البوسنـوي) ارتبط منذ تأسيسه وانطلاقته بمفهـوم مغاير عن الاستشراق الأوروبـي التقليـدي مـن حيث النظـر إلى (الـتراث الشرقـي) الموجود في البوسنـة. فـإذا كان هـذا (الـتراث الشرقـي) بالنسبـة إلـى الاستشراق الأوروبـي التقليدي يمثل (الآخر) أو موضوع الدراسة للتعرف على (الآخر) سـواء لفهمـه أو لإخضاعه فإنـه بالنسبة إلى الاستشـراق البوسنوي أصبح يمثـل الذات وليس الآخر، وهو مـا تبلور لاحقاً بشـكل أوضح مع عمل معهد

(1) راجع: خليفة، عبدالباقي، صحيفة الشرق الأوسط، لندن، العدد (9553) تاريخ 2005/1/23 ص 18.

الاستشــراق[1]. بينما نرى بِـأَنَّ الاستشراق الروسي يعــاني مشاكل وانحيازاً وعداءً لا تختلف عن انحياز الاستشراق الغربي.

(1) راجـع: راجـع: الأرناووط، محمد: تمايــز (الاستشراق البوسنــوي) الأسس والنتائــج، صحيفة الحياة، لندن، تاريخ 2010/11/5، ص 19.

خامساً: الدافع العلمي للاستشراق

في كل مرة يشعر فيها الغرب بالفراغ يتجه إلى الشرق

الناقد، بيزومب[1]

إنَّ الأصل في البحث العلمي أن يكون محايداً وموضوعياً عندما يتناول أي ظاهرة بالنقد والتحليل؛ حتى يتمكَّن الباحث من الوصول إلى الحقيقة العلمية قيد البحث بتجرُّد تام، بعيداً عن الغرض والهوى الشخصي، لكننا نجد أغلب المُستشرقين -للأسف الشديد- مُنحازين في بحوثهم، وبعيدِين عن الموضوعية، ويتخفَّون وراء دراساتهم بالأغراض التي يسعَون لتحقيقها بدوافع شخصية، أو بإيحاء من أطراف أخرى مُغرِضة، في محاولة خبيثة للطعن في الإسلام، والمسِّ بالتراث العربي والإسلامي[2]. إذ يؤكد المستشرق وأستاذ التاريخ الحديث للشرق الأوسط بجامعة نيويورك (زكاري لوكمان) أنَّ الاستشراق هَدفَ في البدء إلى إظهار الإنسان الغربي باعتباره إنساناً متحضراً، مقابل إنسان شرقي متخلف غير عقلاني، ولكن يعود (زكاري) ويقول إن ذلك أظهر تياراً من المستشرقين اتجهت دراساتهم إلى أهداف علمية أسمى، تهتم بحضارة الشرق وكنوزه بعيداً عن المخططات الاستعمارية أو النظرة الفوقية.[3]

(1) روجيه بيزومب: فنان فرنسي ولد في باريس. وأقام عدة معارض فنية في أنحاء مختلفة من العالم.

(2) راجع: عبوش، نايف: الاستشراق.. ذاتية سافرة.. ونهج متحيز، موقع الألوكة الإلكتروني (مدوّنة)، تاريخ الدخول تشرين الأول/ أكتوبر 2016.

(3) راجع: المجلة العربية، الرياض، العدد (419) تشرين الثاني/نوفمبر 2011 ص 43.

ولقد تمثل الدافع العلمي للاستشراق في جانبين:

الجانب الأول: دراسة علوم الشرق الإسلامي

فقد كان الغرب يعيش في ظلام حالك، ويعاني من تخلف حضاري مطبق، ففتح عينه على تقدم المسلمين العلمي، وتفوقهم الحضاري، وسبقهم في شتى الميادين، وخاصة عندما فتح المسلمون الأندلس، وأقاموا فيها حضارة زاهرة، ومدنيّة راقية، واكبها نهضةٌ علميةٌ خارقة.

وانكب الغربيون على علوم الشرق الإسلامي ينهلون من معينها الصافي، وطفقوا يجمعون المخطوطات الإسلامية في شتى الميادين، وينقلونها إلى اللغات الأوروبية، إنّ المنهج العلمي: (لم يبتدعه المستشرقون ابتداعاً، بل هو منهج أشاعه في الغرب أعلامُ المفكرين، من أمثال: مونتن، وسانت أفرموند، ومونتسكيو، وقد التزمه علماء الغرب في كل مناهجهم التزاماً شديداً، وطبَّقه المستشرقون على علومنا وآدابنا وفنوننا تطبيقاً صحيحاً، كما في اللغات الأخرى، سامية كانت أو آرية).[1]

الجانب الثاني: دراسة الإسلام وعلومه من منطلق البحث العلمي النزيه، دون تحيز:

وهناك بعض المستشرقين أقبلوا على دراسة الإسلام دراسة علمية خالصة، محاولين التجرد عن الهوى، والتجافي عن التعصب، (بدافع حب الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها، وهؤلاء كانوا أقل خطأً في فهم الإسلام وتراثه، لأنهم لم يكونوا يتعمدون الدس والتحريف، فجاءت أبحاثهم أقرب إلى الحق وإلى المنهج العلمي السليم من أبحاث الجمهرة

---

(1) راجع: نجيب العقيقي، المستشرقون، جـ 3 ص: 1141 / 1142.

الغالبـة من المستشرقين)[1]. بحيث أصبح الاستشـراق في آخر الأمر أسلوباً غربيّـاً لفَهْم الشـرق، والسيطرة عليـه، ومحاولة إعـادة تنظيمه وتوجيهه، والتحكُّـم فيـه، وباختصـارٍ صار هـذا المفهوم يَهـدف إلى إخضـاع الشرق للغـرب، وأداة للتعبـير عن التناقضـ والتبايُـن بينهما. طبَّـق المستشرقون علـى أنفسهـم وأبحاثهم نظامَ التخصص، فالبعضـ يختصُّ باللغة وفقهها وبلاغتهـا، والآخر يختص بالتشريع الإسلامـي ونشأته وتطوره، ومنهم من تفرَّد بعصر دون سواه، أو بدراسة شخص دون غيره، أو تعقَّب كل ما كتب في موضـوع معين بسائر اللغات، وتصحيح ما قـد يشوبُه من خطأ، فالمستشرق الفرنسـي (ليـون جوتيـه) تعقَّب ترجمـات (حي بـن يقظـان)[2]. الكثيرة المتداولـة، وأعـاد النظـر فيها، ثـم نشرها متنـاً وترجمة، فجـاءت الطبعة العلميـة الفريدة (الجزائر 1900 - بـيروت 1936 باريس 1937). وها هي المستشرقـة (جنيفر سكيرسـ) تقدم صورة يومية للحيـاة الشرقية للشرق في الفترة الممتدة مـن القرن السادس عشر وحتى التاسع عشر، فالمؤلفة قد افتتنت بالشرق، رسمت له صورة من رخاء وفير، حيث تصف الجواري عند قدمـي سيدهن أو سيدتهـن، بانتظار أدنى إشارة لتحقيـق رغباته، أو أدنى إيمـاءة لتنفيذ أوامرها. فقد كانـت الطبقات الثرية الشرقية تقضي نهارها في الاسترخـاء، والتدخين واحتساء القهوة، وسمـاع الحكايات والاستسلام لمباهج الحريم والموسيقى والغناء.[3]

---

(1) راجع: د. السباعي، مصطفى، الاستشراق والمستشرقون، ص 19.

(2) حي بن يقظان: ابن طفيل، أبو بكر محمد بن عبدالملك، أندلسي كبير من رجال القرن السادس للهجرة أيام الحملات الصليبية، كان موسوعة في المعرفة، فهو: شاعر، طبيب، أديب، رياضي، فلكي، فيلسوف، بالإضافـة إلى أنه فقيه عالم بالأصول والجدل، وحافظ للحديث ورجل دولة... راجع: مصطفى، شاكر، اليتامى القادة في التاريخ، الدار العلمية للنشر، ط1 1995 ص 73.

(3) راجـع: سكيرسـ، جنيفـر: الثقافة الحضريـة في مدن الشرق، ترجمـة ليلى الموسـوي، الناشر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 2004.

لقد دأَب المستشرقون على العمل بصبر وجَلَدٍ منقطع النظير، وربما ينقضي عمـر أحدهم في تحقيـق مخطوط، أو تصنيـف كتاب، أو تحريـر مقالة، لا يشغلـه مـال ولا أهل ولا وطـن، ولا ينتظر مكافأة من أحـد، وقد يتهرب من الدعوات الكثيرة التي توجه إليه لتكريمه ومنحه أرفع الجوائز.

ومـن المعـروف -على سبيـل المثـال- أن المستشرق البريطـاني إدوارد لين، رحـل ثلاث رحلات إلى مصـر، في سبيل معجمه (مـد القاموس) بالعربية والإنجليزيـة، وكان يعمـل فيه مـن اثنتي عشـرة ساعةً إلى أربـعَ عشرةَ في اليوم، على مدى خمس وعشرين سنة.[1]

والمستشـرق الألمـاني (فلوجيـل)، جمع مخطوطـات كتـاب الفهرست لابن النديم من مكتبات فيينا وباريس ولندن طوال خمس وعشرين سنة.

وتعاقب علـى ترجمة كتاب الخطط للمقريزي ثلاثة مـن المستشرقين، هم: (يوريـان) الذي تـوفي سنة 1903، و(كازانوفا) الذي تـوفي سنة 1926، ثم (فييت) الذي تولى إدارة مجلة القاهرة سنة 1938.[2]

لذلـك أُسسَـت مراكـز للبحث والتحقيـق، ودُور نشْـر، ودوريَّـات، وكليَّات، ومؤسسات متنوعة، تخصَّصت في تُراثنا، ومجتمعاتنا، وتاريخنا، وعاداتنا، كانـت تُؤمِّـن خدمات هائلة لـوزارات المستعمـرات في الـدول الاستعمارية، حتـى إن تزايُـد الاهتمام بالـتراث الإسلامي، وتحقيقه ونشـره، وفهرسته، وترجمته- كان يتناسب طرديّاً بشكل ملحوظ مع تفاقُم ظاهرة الاستعمار في ديارنا، فيما كان يتراجع هذا الاهتمام في حالات انكفاء الاستعمار وتراجُعه وانحساره.

(1) راجـع: الألفـي، أ.د. محمـد جبر، الاستشراق مهنة وهوايـة، موقع الألوكة الإلكـتروني (مدوّنة)، تاريخ الإضافة 12/17/ 2014. تاريخ الدخول تشرين الثاني/نوفمبر 2016.

(2) راجع: البهي، محمد، الفكر الإسلامي الحديث، ص: 609.

الرحالة الحقيقيون

لا يعنـي مصطلح (المؤسسـة الاستشراقية) بالضـرورة مؤسسة استعمارية عـبر تفريغها مـن مضمونها العلمـي والمعرفي والحضاري، فقبـول المؤسسة بصفتها عملاً بشرياً (له ما له وعليه ما عليه) يبدو مقبولاً إلى حد كبير في مقابل الرفض المطلق للمؤسسة بصفتها مجالاً لم يكن العلم فيه غير وسيلة لم تكن قادرة إلا علـى رؤية أهدافها الاستعمارية[1]. صحيح أن هذه الحركة لم تخل مطلقاً من التحيـزات الآيديولوجية، والتدخلات السياسية، وخدمة الأجنـدات الاستعماريـة، لكـن في المقابل من ذلـك ثمّة جهـود استشراقية جبارة أسهمـت في بعث وإحياء تراثنا العربـي الإسلامي، مثلما أسهمت في مسـار نهضتنا الحديثـة والمعاصرة، وإن لم يحل ذلـك دون تعرضها للمدح والثناء حيناً، والنقد والهجوم أحياناً أخرى[2]. فقد شوهت صورة الاستشراق الأكاديمـي العالي المستـوى في العالم العربي وليس فقـط الاستشراق الآخر الانتهـازي العنصـري الـذي لا قيمة له مـن الناحية العلميـة. ولم يبق منه شيء أصلاً. وقـد قدم الاستشراق (الموضوعي) خدمـات كبيرة للدراسات العربية والإسلامية عـبر تأليف قواميس ضخمة وتحقيق بعض المخطوطات المنسيـة من قبـل العلمـاء والباحثين العـرب، من خلال طـرق علمية بحتة ضمـن طرق تاريخية فيلولوجية، وكانت هناك كوكبة من المستشرقين الذين فتحـوا الباب واسعاً لنفض الغبار عن أهم مكونـات تراثنا، ومنهم: موريتز ستينشنيـدر والمستشرق الشهير كارل بروكلمـان، والمستشرق جورج غراف الـذي تخصص بتحقيق المخطوطات العربيـة المسيحية. والمستشرق ألفريد

(1) راجـع: منـير، عمـرو عبدالعزيز، المستشرقـون في الجزيرة العربيـة، صحيفة الحيـاة، اللندنية، تاريخ 2014/1/17.

(2) راجع: حلمي، عبدالوهاب: نقد الاستشراق بين الديني والسياسي، صحيفة الشرق الأوسط، لندن، العدد (11690)، 2010/10/30.

فون كريمر الذي تخصص في دراسة التاريخ الثقافي الإسلامي، ويوليوس فلهاوزين الذي تخصص في دراسة التاريخ السياسي للإسلام. وأما المستشرق رينهارت دوزي[1] فقد اشتهر بكتابه الموسوعي عن تاريخ إسبانيا الإسلامية عام 1861[2]. وكتب الفرنسيون- شاتو بريان، نرفال، لامارتين، فلوبير، فرومنتان، لوتي، جيد- في غالب الأحايين عن أماكن زاروها واقعياً، وكتاباتهم -إذن- تعد أكثر توثيقاً وأقل تخيلاً. وهيمن بايرون ومور وشيللي وتوماس هوب ووالتر سكوت وجيمس موريير -الذين كونوا ذروة الاستشراق الأدبي البريطاني- بموضوعاتهم عن التمرد، الأهواء والطغيان الشرقي، على العقود الثلاثة الأولى من القرن التاسع عشر.[3]

وينظر الكاتب العراقي علي بدر من خلال المستشرق الفرنسي ماسينيون إلى الخطاب الاستشراقي نظرة غير إطلاقية. فهو يميز فيها بين مناطق الظلّ ومناطق النور. وبين الرؤية الموضوعية والرؤية الذاتية. ولا يوافق على أطروحة إدوارد سعيد التي تجعل من التكوين المعرفي والثقافي الذي أنتجه الاستشراق أداة هيمنة وسيطرة على العوالم المستعمَرة. كما يقف ضد أطروحة هانتغنتون التي تضع الحضارات والثقافات على خطوط التنازع والصراعات القاتلة والحادة. ويرفض الرؤية التبسيطية أو الازدواجية للعالم أو لمفهوم العدو. وينظر بدلاً من ذلك، إلى الاختلاف نظرة التقاء واستيعاب ونقد[4]. وبصدد ذلك يؤكد المفكر السوري هاشم

(1) رينهارت بيتر آن دُوزِي: (1820 – 1883) مستشرق هولندي، من أصل فرنسي، بروتستانتي المذهب. هاجر أسلافه من فرنسا إلى هولندا في منتصف القرن السابع عشر. مولده ووفاته في ليدن. له كتاب العرب في دولة العبّاديين، وتاريخ المسلمين في ألمانيا.

(2) راجع: أركون، محمد، مجلة المجلة، العدد (227)، 9 شباط/فبراير 2014.

(3) راجع: أروين، روبرت: خطابات الاستشراق، ترجمة، عثمان، أحمد، موقع فصلية التسامح العُمانية، العدد (31) 2011.

(4) راجع: زين الدين، أحمد: المستشرق لويس ماسينيون بهواه البغدادي، صحيفة الحياة، العدد (17215)، تاريخ 2010/5/23 ص 15.

صالح أنّ: (الدراسات الاستشراقية تسيطر تماماً على المنهج التاريخي بكل أدواته ومصطلحاته وتحاول تطبيقه على تراثنا الإسلامي. وتكون النتيجة إضاءة لم يسبق لها مثيل لهذا التراث).[1]

وفي كل الأحوال؛ سلك الفريقان (المادح والقادح) مَضايق التعميم والأحكام المسبقة وردود الفعل العاطفية. فالاستشراق ليس كله استعمار وهيمنة فقط. فهذا خطأ ارتكبه معظم المثقفين العرب للأسف الشديد. فالواقع أن الاستشراق هو علم بالمعنى الحقيقي للكلمة، وقد جمع معلومات كثيرة عن تراثنا ومجتمعاتنا. حيث يتم الخلط عند خصوم الاستشراق بين فريقين وبين مسألتين: بين المستشرق الأكاديمي العلمي الباحث، بكل تجرد، عن ميزات الفكر الإسلامي والتراث العربي، وبين المستشرق، أو المستعرب الذي أرسلته حكومته في دور مزدوج ولهدف مزدوج، ظاهره علمي وباطنه سياسي.

فقد انطلق خصوم الاستشراق من قاعدة الشاعر البريطاني روديارد كبلنغ الشهيرة بِأَنَّ (الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا). وهذا قول شعري رومانسي ترميزي وليس قاعدة علمية، مهما اتسعت صحته.

وضمن هذا التقليد تنبثق نماذج إنسانية جديدة من المستشرقين. وعندما يظهر في الجيل الذي سبق عام 1914، عصر التوسع الجذل المولع بالقتال والواثق من نفسه، (العميل الإمبريالي) الرجل الذي يضع معرفته وأفكاره، وشعوره ودوافعه في خدمة الإمبراطورية، وشهِد القرن التاسع عشر اهتماماً أوروبيّاً بالشرق، وظهَرت أسماء معروفة في دراسة الشرق ولغاته وحضاراته، بفعْل دوافع سياسية؛ مثل: هنري بالمر، وريتشارد بيرتون، وتشارلز دوتي (1840 – 1883).[2]

---

(1) راجع: هاشم، صالح: الجهاد قبل الإسلام وبعده.. وفهم أتباع بن لادن، صحيفة الشرق الأوسط، لندن، العدد (9000) تاريخ 2003/7/20 ص 15.

(2) راجع: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، محرك البحث غوغل تاريخ الدخول 2015/10/12.

وكان هنــاك مــن الكتاب الأوروبيين من يبحث عــن المعرفة في أجواء شرقية مفعمة بالسحر والخيال: مــن بينهم شاتوبريان، لامارتين، اليكسندر دوما، جيرار دونيرفال، الذي ألــف كتاباً ضخماً بعنوان: (رحلة إلى الشرق). كما نذكــر أيضاً غوبينو، فلوبير... إلخ. ثم جاء دور كبار المستشرقين الأوروبيين الذيــن رحلوا إلى الشــرق بهدف الدراســة العلمية للغاتــه، وتراثه الديني، وعاداتــه وتقاليده. نذكر من بينهم الفرنسي أرنســت رينان، والألماني كارل بيكر، والهنغاري الألماني اللغة غولدزيهر، والهولندي هورغرونيه.[1]

وفي الفــترة الممتدة بين عامي (1809 – 1817) كرّســ الرحالة والمستشرق بوركهــارت السويســري الجنسية وقته للسفر والترحال عــبر الشرق الأدنى ومصــر والجزيــرة العربية تحــت اســم مستعار هــو (الشيــخ إبراهيم بن عبــدالله)، والذي كان قد اختاره لنفسه، كما أنه تعلم اللغة العربية وتكلّمها بطلاقــة، واعتنق الإســلام ديناً، وأعــاد اكتشاف الآثار المنسيــة في البتراء ومعابد أبو سمبل بصعيد مصر.

تلقى بوركهارت تشجيعاً وتكليفاً مــن السير (جوزيف بانكس) رئيس رابطة اكتشــاف المناطــق الداخلية في إفريقيــا حيث تعلم اللغــة العربية والكيمياء وعلم المعادن والطب.[2]

وفي 1شبــاط/ فبراير 1809 ركب البحر متوجهاً إلى مالطا، الموصل، حلب، الــذي مكث فيها لمــدة ثلاث سنوات كرّسهــا لتعلّم اللغــة العربية، والتعرف إلــى طريقة الحياة العربية حيــث أطلق لحيته، وقد اعتنــق الإسلام، انكب على دراسة القــرآن الكريم، وكان مولعاً بالسفــر في الصحراء وحيداً حيث

(1) راجــع: صالــح، هاشم: المثقفــون العرب بين الاستشــراق والاستغراب، صحيفة الشــرق الأوسط، لندن، العدد (10614)، 20 كانون الأول/ ديسمبر 2007.

(2) راجــع: ناصــف، عبدالحميد صبحي، مــن الاستشــراق السويسري، صحيفــة الحيــاة، اللندنية، العدد (17613) تاريخ 25 حزيران/يونيو 2011 ص 19.

الشمس الحارقة على عكس السفر في الغرب فهو يظل محبوساً في عربة ضيقة طيلة النهار، وربما هناك اعتبارات سياسية كان لها دورها في تمويل وتشجيع تلك الرحلات باتجاه الشرق والقارة السمراء، انطلق بوركهارت من مصر إلى البلد الذي شهد ولادة الرسول العربي عليه الصلاة والسلام، حيث وصل بحراً إلى الحجاز عام 1814، وهناك أدى مناسك الحج كاملة، تمكن بوركهارت من دراسة العادات والتقاليد للبلدان التي زارها، قدم عن القبائل البدوية رسائل إيجابية صورت طريقة حياتهم وتوزعهم الجغرافي، كان بوركهارت يمثل بجدارة مهنية واستشراقية فريدة من نوعها نزعة المعرفة الخالصة والتي تعبر عن وعي واهتمام بالمنطقة وسكانها فهو يستحق أن يكون مثالاً للمستشرقين الباحثين عن المعرفة لا عن المكاسب الاستعمارية. ويكتسب المستشرق والرحالة البريطاني (هاري سينت بردجر فيلبي)، أو (عبدالله فيلبي) بعد اعتناقه الدين الإسلامي، مكانة مهمة في الذاكرة العربية والإسلامية خلال القرن العشرين، رحل إلى الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الأولى، ودخل الجزيرة العربية في مهمة رسمية، ولكن لقاءه مع الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله غيرَ مجرى حياته كلياً، حيث أعلن إسلامه عام 1930، وقد تحوّل عبدالله فيلبي إلى مدافع عن الإسلام عبر عدد من الكتب[1]. وهناك الرحالة ويلفرد بلانت (Wilfred Blunt) والذي تناول في رحلاته الأقاليم العربية حيث زار قبائل البدو على نهر الفرات في عام 1878 وتغلغل في صميم بلاد العرب إلى نجد في عام 1879، فقد كان اهتمامه بالعرب وبلادهم، شأنه شأن الكثيرين من الإنكليز، وكانت رحلاته مرتبطة إلى حدٍ كبير بفلسفته العامة في الحياة،

(1) راجع: أبو زيد، أحمد منصور: فيلبي.. الرحالة البريطاني، المجلة العربية، الرياض، العدد (426) حزيران/يونيو 2012 ص 54-55.

حيث كانت نظريته السياسية التي توصل إليها من خلال مشاهداته العامة، هــي أنّ الإمبراطوريات كلها خطأ فاحش، مــن الإمبراطورية الرومانية إلى الإمبراطورية البريطانية.[1]

ومن المستشرقين غير المتعصبين، ومنهم من أسلم:

1 - المستشــرق الألمــاني (يوهــان رايسكــة) (1716 - 1774م): الذي كان واحداً من أبرز علماء العربية في عصره، وإليه يرجع الفضل في إيجاد مكان بــارز للدراسات العربية في ألمانيا، فقد امتــدح الدين الإسلامي في كتاب له باللاتينية، والأمريكي توماس (عمر) أبيركرومبي (ت 2006) حيث اشتهر بتغطياتــه الصحافيــة المميزة للشــرق الأوسط، كانت تنطــوي على جوانب دينيــة واجتماعية وإثنوغرافية. وكانت أبرز محطــات حياته المهنية تغطيته موسم الحج في 1965م، وله السبق كأول صحافي غربي يحصل على تصريح بتغطية شعائر الحج وبإذن شخصي من الملك فيصل آل سعود - رحمه الله.

لا نعــرف الكثــير عن ظــروف تحوله إلى الإســلام في أوائــل 1965م، ولكن زيارتــه لقرية لبنانية في قضاء زحلة تدعى قــب إلياس شهدت أول علامات تحولــه إلى الإيمــان الجديد، حيث يصف شعوره بعــد زيارته مسجد القرية بقولــه: (اختلطت بالنــاس وانجرفت مع التيــار البشري بعــد خروجنا من البــاب المضيء، ثم عبرنا نحو زقاق ضيق يعج بالمتسولين، فغدوت مع الناس في شعور دافئ بالانتماء، وبدا لي أنهم تقبلوني كواحد منهم).[2]

2 - المستشرقــة الأستراليــة المعاصــرة (تساريس وادي): التــي كتبت كتاباً أسمته (العقل المسلم)، التزمت فيه بالإنصاف والموضوعية. ويعتبر الشاعر

---

(1) راجع: مجلة المشاهد السياسي، لندن، العدد (395) تاريخ 5-1 1 تشرين الأول/ أكتوبر 2003 ص 49.

(2) راجع: المجلة العربية، الرياض، العدد (474)، نيسان/ أبريل 2016.

السويدي غونار إيكيلوف (1907 – 1968) بصفته واحداً من أهم الشعراء المعاصرين في السويد، والذي اتجه إلى أفكار الشرق وحضارته فقرر أن يدرس العربية والفارسية والسنسكريتية والهندوستانية والبنغالية، فقد اكتشف وهو في عمر الثانية عشرة في المكتبة الملكية السويدية كتابين أثّرا في حياته تأثيراً عميقاً، الأول هو (ترجمان الأشواق) لمحيي الدين بن عربي، والثاني (الموسيقى الهندية) لمؤلفه فوكس سترانجويس، وقد وقع هذا الشاعر في هذين الكتابين، وخصوصاً كتاب ابن عربي الذي أصبح ملهمه ودليله في صباه وشيخوخته.[1]

3 – المستشرقة الألمانية آن ماري شيمل: شُغلت بأجواء الشرق منذ أن كان عمرها سبع سنوات لتأثرها بقصة تروي حكاية طفل يتيم في دمشق، القصة سحرت آن ماري، المستشرقة الألمانية التي أنصَفت الإسلام، لها من المؤلفات: مختارات من مقدمة ابن خلدون بالألمانية 1951م، والأبعاد الروحية في الإسلام 1975م، والمُلك لك بالألمانية 1978م، ويَشمل مختارات من الأدعية الإسلامية المأثورة، ومحمد رسول الله بالألمانية 1981م. وابتداءً من تلك اللحظة، كانت مأسورة بأجواء الشرق الذي ستظل تشعر بحنين خفي إليه، حنين سيطبع لاحقاً حياتها المهنية بطابعه القوي. فآن ماري شيمل[2] بدأت في سن الخامسة عشرة بتعلم اللغة العربية، التقت عام 1950 بالمستشرق الفرنسي لويس ماسينيون[3] في هولندا ومن هناك التقت أفكارهما حول الشرق، والذي أصبح معلمها فيما بعد. حائزة على الدكتوراه

(1) راجع: صالح، فخري: غونار إيكيلوف على خطى ابن عربي، صحيفة الحياة، لندن، العدد (16993) تاريخ 13/ 10/2009 ص 16.

(2) آن ماري شيمل: ولدت في إيرفورت، ألمانيا، في 7 نيسان 1922، مستشرقة مهتمة بالتاريخ والحضارة الإسلامية، لها أكثر من خمسين كتاباً، توفيت في 28/ 1/ 2003.

(3) لويس ماسينيون: (1883 – 1962)، مستشرق فرنسي عشق الشرق ورأى في التصوف الإسلامي الذي تمثل له في (الحلاج) مناجاة إلهية موجودة في كل المِلل والنِحل والأديان.

في تاريخ الأديـان، تعرف ماري شيمل كواحدة من أهـم المستشرقين الألمان خلال النصف الثاني من القـرن العشرين، وحضوراً استثنائياً في الأوساط العلميـة المهتمة بجوانـب الحياة الشرقيَّـة المختلفة. وخصوصـاً الدراسات في مجـال التصـوف والمتصوفـين، حيـث احتلت مكانـة متقدمـة في تاريخ الاستشـراق الأوروبـي الحديث[1]. وفرضـت نفسها في بلـدان الشرق نتيجة مهنيتها واعتدالها في تناول قضايا الشرق الحساسة وقد مارست المستشرقة (ماري شيمل) الاستشراق المستنير من خلال مد جسور الحوار بين الشعوب والحضـارات في إطار مبدأ لا سائد ولا مسود إلى التعريف بالقيم الإنسانية والحضارية للإسلام، وكان موقفها من نظرية (صدام الحضارات) ونظرية (نهايـة التاريـخ)، والأطر العولمية علـى اختلاف صنوفها سياسيـاً وثقافياً وعقائديـاً واجتماعياً[2]. وبأَنّ تلـك الأطروحات ما هي إلاّ اشتباك مع العالم الإسلامي مـن أجل تجديد العداء التاريخي بين الشرق والغرب. لقد غيرت ماري شيمل بعبقريتهـا وفهمها الإيجابي لحضارة الشرق والإسلام النظرة إلـى المستشرقـين باعتبارهـم شرٌّ لابد منـه، فقد كانت تمثـل الوجه الآخر للاستشراق، الوجه المثالي والمستنير. وليس هناك متابع لأدبيات الاستشراق الغربي لا يعرف مدى تميز الاستشراق الألماني عن غيره في دراسته للإسلام تاريخـاً وثقافـة وعقيـدة... وكثيرون منهـم يتفقـون علـى أن المستشرقين الألمـان كانوا أكثر موضوعية وإنصافاً في تناولهـم لموضوعاتهم من غيرهم من البريطانيـين والفرنسيين والأمريكيين. حيث تميـز المستشرقون الألمان في دراســة الإســلام عن غيرهــم مــن المستشرقين وتفوقهــم في الموضوعية

(1) راجع: مجلة النقاد، بيروت، العدد (145) شباط/ فبراير 2003، ص 31.

(2) راجع: أبو العلا، محمد حسين: ماري شيمل... ملحمة العشق الاستشراقي، صحيفة الحياة، لندن، العدد (16997) تاريخ 17 تشرين الأول/ أكتوبر 2009 ص 17.

والإنصــاف أيضــاً[1]. ويشهد التاريــخ على العلاقة الوديّــة في القرن التاسع ميــلادي بين الخليفة العباسي هارون الرشيد وقيصر الروم للأمة الألمانية، وأول ترجمــة للقــرآن الكــريم صدرت كانت عــام 1772 نقلها إلــى الألمانية الدكتــور فيغــرلان كمــا تحــدث كارســتن نيوهــاور في مجالســه الأدبية عن مشاهداته الرائعة حسب وصفه في اليمن السعيد خلال رحلته سنة 1763.

وأهــم الصــروح التي تدل علــى مدى عمق العلاقــة العربيــة الألمانية معهد الاستشــراق في مدينــة بون ويعــد من أقــدم المعاهد في أوروبــا للاستشراق والعلوم الإسلامية وتأسس قبل أكثر من مائة عام.[2]

4 – البريطاني، إدوارد وليم لين (العريس الشرقي):

ولــد بالقرب من لنــدن في (هيرفورد) سنة 1801 ونشــأ في أسرة متوسطة حيث كان والده يعمل كاهناً بسيطاً وكانت أمه من أسرة مرموقة (ابنة أخت الرســام البريطــاني الشهــير جانزا)، قادتــه ميوله الفنية إلــى التفكير في الفنون الشرقية والآثار المصرية التي بدأ الأوروبيون يهتمون بها بعد الحملة الفرنسيــة علــى مصر. واعتبــاراً من عــام 1822 بدأ يهتم باللغــة العربية، ونلاحظ بِأَنَّ هناك جانبين مهمين ورئيسيين لاستشراق إدوارد لين.[3]

يتمثل الجانب الأول في تعاطفه مع الدين الإسلامي (لدرجة توحي بالإحراج لأسرتــه والأوساط المحافظــة في لندن)، ويتمثل الثــاني في تأليف القاموس

---

(1) راجع: مجلة المستقبل العربي، بيروت، العدد (329) أيار/ مايو 2007 ص 174.

(2) راجــع: سلامة، اعتدال: الاستشراق نافذة لنمو العلاقات العربية الألمانية، موقع إيلاف الإلكتروني، 28 شباط/ فبراير 2007.

(3) إدوارد وليــم لين: هــو ابن الدكتور ثيوفيلوس لاين، كاهن هيرفورد، وكان قــد ولد في 17 سبتمبر/ أيلول 1801 وتعلــم في باث ومدارس هيرفورد الثانويــة، وفي عام 1825 انطلق إلى مصر واستقر لاين في حي المسلمــين، وتحــت اسم منصور أفنــدي عاش حياة عالم مصــري. ظهر كتاب المصريــون الحديثون في عــام 1836 كأفضــل وصف تمت كتابته عن حياة الشرق والبــلاد الشرقية. توفي في ورذينج في 10 أب/ أغسطس 1876 عن 74 عاماً.

العربي الإنجليزي الذي استغرق من حياته طبقاً لما يقوله المستشرق المعاصر آربـيري Arberry زهاء ثلاثين عاماً (المرحلة الأخيرة من حياته)، ولا يزال هـذا القاموس المرجع الأساسي والفريد من نوعـه في العالم، ولا يزال يعاد طبعه حتى الآن. كما ترجم أجزاء من القرآن الكريم كانت للرد على كتابات توماس كارليل الخاطئة عن الإسلام. أطلق على نفسه لقب الشيخ (منصور لـين) وكان يوقع خطاباته بهذا اللقب المحبب له ويضيف عبارة (الفقير إلى الله) وهـي عبارة يتواتـر ذكرها في عجائب الآثار للشيـخ الجبرتي. ويتمثل الجانـب الإيجابـي لاستشراق إدوارد لـين، في نواحٍ عدة أهمهـا الموضوعية التـي توخّاهـا في البحـوث التي قام بها عـن الثقافة الإسلاميـة في سياقها الاجتماعـي والتاريخـي في النصـف الأول من القـرن التاسـع عشر. حيث تحـدث عن المسائل الأدبيـة والفنية، وأسهم في الأبعـاد الاجتماعية للثقافة الإسلاميـة إبّـان عصـر محمد علي، وعلـى ضوء ذلك نجـد أن إدوارد لين يصحـح مفهوماً خاطئاً كان قد شاع في أوروبا عن مكانة العلوم الطبيعية في المجتمـع الإسلامي الحديث، وحتى الآن لم يستطع الدارسون أن يتيقنوا من الأسبـاب التي دفعت إدوارد لين إلى تكريسـ حياته للاستشراق، وربما كان هنـاك مزيج من الدوافع المتباينة[1]. وقد سارت المستشرقة البولندية (يؤانا فرونتسكا) على خطـى إدوارد لين من حيث الاهتمام باللغة العربية والدين الإسلامـي، أدباً وفناً وعلمـاً وفلسفة، وقد استوقفهـا التصوف وفلاسفته. والمذاهب التي خلفت ذلك التراث الصوفي بتألقه وتجلياته الحدسية.

وينـدرج في هذا الإطـار المستشرق البريطاني (فريـد هاليداي) الذي كان صاحـب قيمة بـارزة في مجـال الدراسات الشـرق أوسطيـة، ويذكر لفريد

(1) راجـع: الجمـال، لطيف: الجوانـب الإيجابية للاستشراق، مجلـة (المجلة)، العـدد (615) تاريخ 20-1991/11/26 ص 75.

هاليداي بِأَنّه جاد في أبحاثه التي تتميز بالمنهج العلمي والعملي في آن واحد، وهو الذي تمثل في كتاباته، لإيجاد بديل لعلم الاستشراق التقليدي في الغرب بـكل جذوره وارتباطاته الاستعمارية، ربما هذا الموقف لهاليداي هو لانتمائه إلى دوائر اليسار في ذلك الوقت.[1]

وكانـت كتبـه ذات منهج واضح وصريح، كما في كتابه عـن الأوضاع في شبه الجزيـرة العربيـة ومنطقـة الخليـج في مطلع عقـد السبعينات مـن القرن الماضي، وأصدر الكثـير من الكتب لتصحيح المغالطات التي تروج لها دوائر معادية للعرب والمسلمين في الغرب بشأن الأوضاع في الشرق الأوسط، ومنها كتـاب (مئة أسطـورة حول الشرق الأوسـط)، وكتاب (الشـرق الأوسط في العلاقات الدولية).

وكان من أولئك المهتدين للإسلام في عصور الاستشراق المتقدمة المستشرق (تورميـدا) (1352 – 1432م)، الـذي ولـد في ميورقـة، وتلقـى علومه في إيطاليـا، وانضم إلى الرهبنة الفرنسيسكانية، ورحل إلى تونس، حيث أسلم علـى يـد السلطان أحمد بن أبـي بكر الحفصي، وتَسمّـى بعبدالله بن علي، واشتغـل ترجمانـاً، ومن آثـاره، تحفة الأريـب في الرد على أهـل الصليب. وكذلـك المستشرق الهولنـدي (مارسيل كوربرشوك) فقـد ذهب إلى وادي الدواسـر وأطراف الربع الخالي ليسمع الشعـر النبطي من دندان، ويصور قوافل الإبل بين الأطلال والأوابد.[2]

أَمَّا الأديـب والرحالة المستشرق الفرنسي جـيراردي نيرفال (G. De Ner-val) فقـد كان في كتاباته متعاطفـاً مع الإسلام، في حين حرص على دحض كثير من الافتراءات التي روج لها الرحالة الغربيون عن (عالم الشرق الغارق

(1) راجع: عبدالناصر، وليد محمود، صحيفة الحياة، لندن، العدد (17204) تاريخ 2010/5/12 ص 10.
(2) راجع: اللاذقاني، محيي الدين، صحيفة الشرق الأوسط، لندن، العدد (8984) 4 تموز/ يوليو 2003.

في الملذات)، و(حيث تسود نزوات الرجل واستبداده من أجل شهواته)![1]

وقد كانت الأديبة الألمانية كاتارينا مومسين[2]. تعقد (وتشارك) منذ عام 1963 ندوات عن العالم الإسلامي في أنحاء العالم، وهي من الداعين إلى إيجاد حلول للتعايش السلمي بين المسلمين وغير المسلمين، وأشارت مومسين إلى أن غوته وفي صباه كان الاحترام والإجلال أهم ما يميز موقفه من الإسلام. وعدّت مومسين أن استشهاد غوته بالقرآن في رسالته الشعرية إلى هيردر لخير دليل على المكانة المتميزة التي احتلها كتاب الإسلام المقدس لديه. وبعد مرور قرابة نصف قرن اعترف الأديب البالغ من العمر سبعين سنةً آنذاك على الملأ بِأَنَّه يعتزم أن (يحتفل في خشوع بتلك الليلة المقدسة التي أُنزل فيها القرآن على النبي).[3]

وقد كتب المستشرق الألماني مارتن هارتمان (1851 – 1918) أكثر من ألف مقال عن الإسلام المعاصر له ومن مكة إلى الصين. وشارك في تأسيس مجلة (عالم الإسلام) للعناية بقضايا الإسلام الحديث، وهي ما تزال تصدر حتى اليوم. وكانت فكرته ضرورة التخلص من لقب الاستشراق، لصالح الدراسات الإسلامية، أو علم الإسلام، ومع أنه كتب أطروحته للدكتوراه تحت توجيه فلايشر عن (الجموع في اللغات السامية)، فإنه حاول كل الوقت الخروج على الفيلولوجيا أو الاهتمامات اللغوية الأثرية، لصالح

(1) راجع: علي، عبده عرفه: الحرملك.. في الفن الاستشراقي، المجلة العربية، الرياض، تاريخ 2016/1/11.

(2) كاتارينا مومسين: أديبة ألمانية حصلت على شهادة الدكتوراه عام ١٩٥٦ في جامعة توبينغن عن أطروحتها (غوته وألف ليلة وليلة)، وحصلت على شهادة الأستاذية عام 1962 في جامعة برلين الحرة، عملت أستاذة جامعية للدراسات الألمانية في الولايات المتحدة في الفترة من 1974 الى1992، وهي أستاذة متقاعدة في جامعة ستانفورد، ومن ضمن أعمالها: (غوته والعالم العربي) (1988) و(غوته والإسلام) (2001) والذي صدرت ترجمته العربية عن (مكتبة الشروق الدولية) في القاهرة عام 2004.

(3) راجع: صحيفة الحياة، لندن: غوته في الثالثة والعشرين من عمره كان يجتهد للاعتراف بالإسلام، تاريخ 2010/3/26.

توجه جيوسياسي تجاه العالم الإسلامي. وهناك من المستشرقين والمؤرخين، الألمان من اندفع باتجاه المنظمة الصهيونية منذ مطالع العشرينات تحت وطأة النزعة المعادية لليهود (باعتبارهم سبب الهزيمة في الحرب)، وتصاعُد الآمال بإيجاد ملاذ آمن لهم بمساعدة بريطانيا أكبر المنتصرين في تلك الحرب.[1]

كما إن عالم الإسلاميات (الألماني) جيرنوت روترز[2] هو عارف كبير بالإسلام، ومتحدث طلق للعربية، ويعد من أكثر المستشرقين الغربيين نزاهة علمية. وقد اتسمت أعماله إجمالاً بنوع من الحيادية وإنّ كان بعضها لا يتفق مع الرؤية الإسلامية، إلا أنها أقل تحيزاً ضد الإسلام من غيره من المستشرقين. وكان أكثر ما يؤرق هذا العالم تشويه صورة الإسلام في أوروبا، وسعى كثيراً لتحسينها.

ونجد أيضاً المؤرخ الشهير صاحب كتاب: (تاريخ الدعوة إلى الإسلام)، السير توماس آرنولد[3]. ويُعَد هذا الكتاب من أفضل الوثائق التي يُمكن أن

(1) راجع: السيد، رضوان: المستشرقون الألمان... النشوء والتأثير والمصائر، صحيفة الشرق الأوسط، لندن، العدد (9462) 24 تشرين الأول/ أكتوبر 2004.

(2) جيرنوت روترز: ولد روترز لعائلة مثقفة في مدينة توباو في 14 مارس (آذار) 1941، توفي في ألمانيا (2010) وهو أحد علماء الاستشراق الذين تخصصوا في العلوم الإسلامية عن عمر يناهز التاسعة والستين. توفي في بلدة شتاده بجوار هامبورغ شمال البلاد. وكان جيرنوت شغل منصب مدير المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت في الفترة بين عامي 1980 و1984، ثم شغل بعد ذلك وظيفة أستاذ علوم الاستشراق المعاصرة في حلقة الاستشراق النقاشية بجامعة هامبورغ حتى عام 2003.

(3) توماس وولكر آرنولد: (1864 – 1930)، مستشرق إنجليزي شهير، بدأ حياته العلمية في جامعة كمبردج، له الدعوة إلى الإسلام الذي نقل إلى التركية والأردية والعربية، حيث أظهر حبه للغات فتعلم العربية وانتقل للعمل باحثاً في جامعة عليكرا في الهند حيث أمضى هناك عشر سنوات ألف خلالها كتابه المشهور (الدعوة إلى الإسلام)، ثم عمل أستاذاً للفلسفة في جامعة لاهور، وفي عام 1904 عاد إلى لندن. كان عضو هيئة تحرير دائرة المعارف الإسلامية التي صدرت في ليدن بهولندا في طبعتها الأولى. عمل أستاذاً زائراً في الجامعة المصرية عام 1930. ويذكر أنه كان معلماً للمفكر الإسلامي الهندي محمد إقبال.

يستفيد منها الباحثون في تاريخ الدعوة الإسلامية. وقد كان الملك الدنماركي (فريدريك الخامس) Ferderick v الذي اقترح عليه أحد وزرائه في عام 1760 أن يرسل بعثة استكشافية إلى البلدان العربية المجهولة، لاكتشاف الصحراء، وكان أبرز هؤلاء العلماء هو الدانمركي (كارستن نيبور) Carsten Niebuhr. فقد كان عنوان كتاب كارستن (وصف بلاد العرب) Beschreibung von Arabien، وكانت الحكومة الدنماركية قد قدمت الدعم الكامل للكتاب. وأعقبه في عامي 1774 و1778 بمجلدين بعنوان (رحلة إلى بلاد العرب والدول المحيطة).[1]

المستشرقون:

الصور المزدوجة

نلاحظ بِأَنَّ الاستشراق أفاد الثقافة العربية فوائدَ عديدةً؛ منها: نشْرُ الثقافة العربية في أوروبا، وترجمة كثيرٍ من كتب التراث العربي إلى اللغات الأخرى، وكذلك تصحيح فكرة الشعوب الأوروبية عن العرب والإسلام، وأيضاً نشْر كثيرٍ من كتب التراث نشراً علمياً، أضِف إلى ذلك كتابة العديد من المؤلفات النفيسة عن الحضارة العربية والإسلامية، ويُمكن زيادة الاستفادة من بعض العلماء المستشرقين في كثير من الميادين الثقافية في البلاد العربية. ومن القصص التي استمدت مسرحها من ديكور الشرق وعاداته وسلوكه، مثل الرسائل الفارسية لمونتسيكيو، ورواية صادق لفولتير، ورواية صفية لكريون، ومذكرات السراي لدوشامب، وحاجي بابا لمونتريون، ورقصة علي خان لسترودولاتور.

---

(1) راجع: الدسوقي، وائل: (كارستن نيبور) أول رحالة دنماركي في بلاد العرب، مجلة دبي الثقافية، العدد (74) يوليو 2011 ص 33.

ومن الصعب، طبعاً، اعتبار الكاتب المسرحي الفرنسي جان راسين، واحداً من أولئك الكتّاب الاستشراقيين الذين ظهروا في الغرب، في شكل خجول أول الأمر ثم بدفق متزايد مع مرور العقود والقرون، ليعبّروا في أدبهم -كما عبر الرسامون في لوحاتهم والموسيقيون في ألحانهم- عن افتتان بالشرق وسحره وغموضه، كما -بالتالي- عن الرغبة في الاستحواذ عليه من خلال مسرحية (بايزيد) ذات المناخ الاستشراقي التي تتوسط -زمنياً- العقد في حياة راسين ككاتب، وتستند -إلى حدٍ كبير- إلى أحداث (حقيقية) حدثت في الآستانة (القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية العثمانية[1])، حوالي العام 1639.

وقد مثّل الفرنسي موريس بوكاي حالة انفرادية بين المفكرين الغربيين من خلال العشق الفكري والصوفية العلمية التي أنتجت أخطر كتاباته على الإطلاق وهي (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم) والذي تشعبت ترجماته لأكثر من ثلاثين لغة في سنوات قلائل[2]. ويضاف إلى من سبق: (اللورد هيدلي)، و(إتيان دينيه)، الذي أصبح اسمه بعد اعتناقه الإسلام (ناصر الدين)، والدكتور (جرينيه) الذي كان عضواً في مجلس النواب الفرنسي. ثم إن البيئة الغربية وجموع المستشرقين تتصدى لكل من يحاول أن يسلك سبيل الإنصاف للإسلام في دراساته، وقد حُورب العديد ممّن مالوا إلى جانب الإنصاف من المستشرقين أدبياً ومعنوياً في الغرب، كما فعلوا مع (توماس أرنولد) حين أنصف المسلمين في كتابه القيّم (الدعوة إلى الإسلام)، ومن الأمثلة على هذا أن المستشرق الفرنسي (كاستريز) حين كتب كتاب (الإسلام) الذي صدر في باريس عام 1896م، وكان فيه شيء

(1) راجع: العريس، إبراهيم، صحيفة الحياة، لندن، العدد (17204) تاريخ 2010/5/12 ص 10.
(2) راجع: أبو العلا، محمد حسين، صحيفة الحياة، لندن، العدد (17088) 16 كانون الثاني/ يناير 2010 ص 16.

من الإنصاف للإسلام والنبي محمد عليه الصلاة والسلام؛ انتقده كل من (رينيــه باسيه) و(كارادي فو)، كما علق عليه المستشرق الألماني (جوستاف بفانموللر) في كتابه (موجز في أدب علوم الإسلام) الذي صدر أول مرة عام 1923م في برلــين بقوله: (إن رأي (كاستريــز) في محمد إيجابي أكثر مما ينبغي)[1]. ومن الذين قادوا حملة التعصب الأوروبية ضدّ العرب ولم يعترفوا إلاّ بفضــل أجدادهم من اليونان والرومان، وادعّــوا أن العرب بطبيعتهم لم يخلقــوا للتفكــير الأصيل المبتكــر، وقاد حملــة التعصب هــذه مجموعة من مفكــري القــرن التاســع عشر أمثــال (جيليوم تنمــان) و(فيكتــور كوزان) و(أرنيســت رينان) 1892م. ويندرج في هذا الجانــب، الكاتب الترينيدادي الأصــل، البريطاني الجنسية، (في اســ. نيبول)، في كتابه (ما بعد الإيمان: رحــلات إسلاميــة بين الشعــوب المعتنقة) عــام 1998، فقد أظهــر الكاتب عــداءً فاضحــاً للشعــوب الإسلامية عمومــاً. فالكاتب نيبــول، لم يكن حالة خاصــة، إنه ليس من محترفي الاستشــراق أو مقتصدي الإثارة، بل شخص مــن العالم الثالــث يوجه رسائله عن تلك المناطق إلى قــرّاء، لنا أن نفترض بأنّهــم مــن الليبراليين الغربيين الذيــن لا يملّون سماع شــرور الكولونيالية، ولكن نستخلص من أهداف (نيبول) تلبية النهم العميق لدى القارئ الغربي المتمثــل بتعريــة الإسلام وفضحــه[2]. بمقابل مفكرين كانــت أحكامهم على الحضارة الإسلامية منصفة منهم: (موريس وولف) و(بيكافيه)[3].

---

(1) راجع: السباعي، مصطفى، الاستشراق والمستشرقون، ص 25.

(2) راجع: مجلة النقاد: المؤلف الأحمق، العدد (80) 29 تشرين الأول/ أكتوبر 2001 ص 30.

(3) راجــع: حسنــي، د. إيناس: مثلث الثقافــة الإسلامية جسر بين التواصل بين الشــرق والغرب، مجلة دبي الثقافية، العدد (86) تموز/ يوليو 2012 ص 98.

سادساً: الاستشراق الفني

> إننا لا نرسم بالضرورة ما نراه، ولكن ما رأيناه يوماً ونخاف ألا نراه بعد ذلك أبداً.

الرسام الفرنسي، يوجين دولاكروا

في ظل الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف، بدأ التدفق الغربي تجاه الشرق بكل الاتجاهات والاهتمامات، وتمثل ذلك بهجرة مئات من المغامرين، ومنهم رحَّالة وأدباء ورسامون باحثون عن رؤية متعة الشرق وسحره وطبيعته الأخاذة... حيث كانت نتيجة تلك الرحلات عشرات المجلدات والكتب واللوحات الفنية، كان المشترك بينها جميعاً رغم اختلاف من قاموا بها ووثقوها، هو تقديم صورة حيّة عن الشرق بكل تفاصيله. وخصوصاً الفنانين الذين قدموا من فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية والنمسا وألمانيا وبلجيكا والسويد. حيث شاعت ظاهرة (الاستشراق) في الفن والأدب وأصبحت صنفاً متميزاً من صنوفهما. فقد تم توثيق صورة الحياة في الشرق بكل تفاصيلها وأسرارها، من قبل أكثر من ثلاثين رساماً استشراقياً يمثلون مختلف المدارس الفنية زاروا الشرق في رحلات متعاقبة إبانّ القرن التاسع عشر، وعلى الرغم من الاهتمام الغربي بالشرق فنياً فقد بقي الاستشراق في الفن التشكيلي رغم أهميته هامشياً إلى حد ما بالمقارنة مع الفروع الأخرى للاستشراق، السياسي منها والاقتصادي والفلسفي. أمَّا عن بدايات الاستشراق الفني فقد تكونت في العام 1893 جمعية الفنانين المستشرقين الفرنسيين التي تزعمها ليونس بنيديت (مدير المحفوظات في متحف اللوكسمبورغ) الذي اهتم بدراسة

الحضارات الشرقيــة القديمة لاسيما العمارة والزخرفـة الإسلامية، وكان من أولــى نشاطات تلك الجمعيــة تنظيم أول معرض للفــن الإسلامي أُقيمَ في العــام 1893 في أروقة متحــف القصر الكبير (الغراند باليه) في باريس. ويُعــدُّ التشكيلــي الفرنسي (الانطباعي) بول سيــزان (1839 – 1906) من الفنانين الذين كان لهم أثر كبير على العديد من الحركات الفنية في القرن العشريــن. ولكن منــذ العام 1870 لم يعد الفــن الاستشراقي مقتصراً على الفرنسيــين والبريطانيين فحســب، فعقب الحرب ضــد مقاطعة بروسيا في ألمانيا، استقبلت باريس عدداً كبيراً من الفنانين الأوروبيين والأمريكيين.[1]

إنّ الفــن الاستشراقــي لم يشكل في الواقــع تياراً فنياً محــدداً، بل هو تعبير عــن حساسية جديدة نشــأت في فرنسا وغيرها من الــدول الأوروبية بسبب التحــولات الكــبرى التي شهدتهــا الأزمنة الحديثة وطاولــت مجمل مظاهر الحيــاة والثقافــة[2]. فالشرق كان هــو عالم الأحلام الــذي يتوافق أو يندمج في عــالم الواقــع، وقد سعى هــؤلاء الرحالة والفنانون، عــن طريق التجاوب في المشاعــر، إلــى التوغل في جوهــر الحضارة الشرقية، حيــث كانت رسوم الفنانين لوحات سعى من خلالها رساموها الأوروبيون إلى التنفيس عما كان يحتبس في مخيلاتهم عن نساء البلاد البعيدة ذات الشموس الحارة.

ومضــى الفنانون الغربيون في تصوير الشــرق ونسائه بالأخص؛ وقد تمثلت بجمــوح خيالاتهم عبر صور إيروتيكية وبنــبرة استفزازية. وهناك من نظر إلى الرسم الاستشراقــي، في العقود التالية له، بشكل نقدي وخصوصاً تلك اللوحــات وموديلاتهــا العارية؛ فهي نوع مخجل مــن الاستلاب الذي مارسه الفنان الغربي المنتمي إلى بلد يستعمر أرض الآخرين ويستبيح أهلها جاعلاً

---

(1) راجــع: حميدة، محمد مهدي: مقاصد الاستشراق، صحيفة الاتحاد، الإماراتية، تاريخ 14 آذار/ مارس 2013.

(2) راجــع: زيبــاوي، أوراس: الفن الاستشراقي في مرحلة التجليات الأخــيرة، صحيفة الحياة، اللندنية، 15 نيسان/ أبريل 2015.

منهم مجرد عبيد ومحظيات يرضخن لنوازعه الدفينة[1]. وقد أثارت طقوس الطريقة المولويّة[2]. ودراويشها الفنانين التشكيليين العرب والأجانب، فقاموا برصدها في العديد من الأعمال الفنية المسطحة (الرسوم واللوحات)، وغيرها من الموضوعات ذات السِمّة الشرقيّة والتراثيّة اللصيقة بالعالم الإسلامي، فقد لفتت المولويّة اهتمام الفنانين الأوروبيين المستشرقين، فوضعوا لها العديد من اللوحات، منها لوحة زيتيّة شهيرة للفنان (جان ليون جيروم)[3]. تحمل اسم (المولويّة) مؤرخة بالعام (1895)[4]. من هنا ظهر مصطلح (الفن الاستشراقي). وفي دراسة شهيرة وصفت المؤرخة الفنية ليندا نوكلين (الشرق المتخيل) (1983) -وهي من تلاميذ إدوارد سعيد- اللوحات الاستشراقية كأنها -قبل أي شيء- ملصقات دعائية ورموز إمبريالية وعنصرية. وحسب نوكلين فهؤلاء الرسامون بحثوا -بعزم وتصميم- عن تصوير العرب والأتراك بطريقة متعجرفة، وعلى تسطير إخفاقات الحضارة الإسلامية، بالتركيز على الأطلال، الحريم، أسواق العبيد، والإعدامات الدموية[5]. فقد انتقدت نوكلين الصفة (النهائية) للوحات الفنان الفرنسي جان ليون جيروم، وكذلك صوبت سهام نقدها للرسام ديفيد روبرتس والذي ارتكب أخطاءه هو أيضاً في رسومه المائية. وحسب المؤرخة نوكلين، فإن الأمر يتعلق بمؤامرة ضد الشرق.

(1) راجع: صحيفة الشرق الأوسط، لندن، العدد (11466) 20 نيسان/ أبريل 2010.

(2) يصف الباحثون (المولويّة) ضمن المذاهب الصوفية، وينسبونها للشاعر الصوفي جلال الدين الرومي المتوفى في مدينة (قونية) التركية عام (1283)، وهي طقس من طقوس الذكر التي تقوم على الموسيقى والغناء والحركة الدائرية التي تؤديها مجموعة من الناس.

(3) جان ليون جيروم: (1824 – 1904) رسام ونحات فرنسي مشهور، ويعد أحد أبرز المستشرقين الذين قدموا إلى الشرق العربي والإسلامي في القرن التاسع عشر، ومجموعة رسوماته تتناول رسومات تاريخية وأساطير إغريقية والشرق.

(4) راجع: شاهين، د. محمود: المولوية في الفن التشكيلي مقربة بصرية لطقوس صوفية، مجلة دبي الثقافية، دبي، العدد (88) سبتمبر 2012 ص 83.

(5) راجع: أروين، روبرت: خطابات الاستشراق، ترجمة، عثمان، أحمد، موقع فصلية التسامح العُمانية، العدد(31) 2011.

بين الفن والأسطورة

ومـن خلال رسـم صور الشـرق في أذهـان المستشرقـين تبينت لهـم صور عديدة حيث طغت صورة الشرق على اهتمامات الفنانين الغربيين؛ بنسائها المتلفعـات بالحريـر والدمالج، فاتنـات بعيونهـن الآسرة والقصـور بديعة الهندسـة والتزاويـق[1]. وفي هذا الجو (الرومانسي) مـن وجهة نظر غربية طبعـاً؛ كانت مهيمنـة على المخيـال الغربي، فقـد وجد الفنانـون الغربيون إمكانيـة لتقديم جمال المرأة العاري في سيـاق تجريدي، وكانت الموضوعات الشرقيـة بالتحديد في عصر الاحتشـام البرجوازي الأوروبي، تسمح بظهور الحسية والجنس لجمهـور عريض، فقد كانت الجواري الشرقيات موضوعاً شعبيـاً في القرن التاسـع عشر، فكان تصويرهن بأشـكال عدة وهنّ يرتدن لباسـاً شفافـاً أو سراويل عريضة لمزيد مـن الاهتمام والاستثـارة[2]. إذ إن الاستعمـار ومن ورائـه الاستشراق (الكامـن)، عَمِلَ علـى ترسيخ الصورة القديمـة للمـرأة، وذلك بربطها دائمـاً بالعصور السحيقـة، ورفض إمكان التغيير والتطور.

حيث كانوا ينظرون إليها على أنّها كائن مسلوب الإرادة والفكر، أو كما يقول إدوارد سعيد: (كانوا يسلبون الإنسان إنسانيته).[3]

مـن هنا أسقط الفنانـون الغربيـون كل استيهاماتهم علـى الشرق وراحوا يرسمـون مـا في هواجسهـم ورؤوسهـم مـن سلطانات كسـلات ومخدرات وجـوارٍ سمـراوات وفاتنـات، وكان لامتـداد الصحـراء وشمسهـا الحارقة أثـر فاعـل في لوحاتهم، كمـا هو الشـأن مع الفنـان (غوستيـف غييومي)

---

(1) راجع: مصطفى، فائزة، مجلة دبي الثقافية، العدد (71) نيسان/ أبريل 2011 ص 57.
(2) راجع: غريب، سمير، صحيفة الحياة، 25/8/ 2009 ص 18.
(3) راجع: بيومي، خالد، صحيفة الحياة، لندن، تاريخ 28/1/2017.

(1840 – 1887)، الـذي كان فنـان الصحـراء بجدارة، وقـد كان مهووساً بالشرق وبمكوناتـه الاجتماعية. حيث كان الهوى الشرقي بالنسبة للطبقات الأرستقراطيـة الأوروبيـة الذين نصبـوا أعينهم صوب الشـرق طاغياً إلى أبعـد الحدود، وكانـت تلك المشاهـد الأكثر تأثـيراً في نفسيـة المستشرقين ودافعـاً للهيام بالشـرق. ولم يخرج (لورانس العرب) عـن هذا الاتجاه فقد رسم لوحـة تمثل عربياً يمتطي جـواده، وكان قد رسمها بالحـبر الأسود[1]. ولم يكـن الفنـان أو المغامر الغربـي (الأوروبي الوحيد) الـذي جذبه سحر الشـرق. حيث بـدا الغربيون متأثريـن بكل ما هو شرقي. وبـدت قيمة الفن الاستشراقـي تبدو أكثر أهمية تاريخياً من بقية فـروع الاستشراق الأخرى، حيث يحظى ذلك النوع مـن الفنون اللصيقة بصور الحياة وواقعها الزمني بامتلاكه لآلاف التصورات المرئية واللوحات والتخطيطات الواصفة والمبينة لمظاهر عمومية وتفصيلية منقولة في معظمها عن بلدان الشرق العربية، وما كان مـن المفكر الفلسطيني الراحل إدوارد سعيد (ت 2003)، الذي عَمِلَ في كتابه (الاستشراق) على تفكيـك أطروحات وعمل المستشرقين، وقد وصف أعمالهـم على جميع المستويـات بما فيها الفنية وحتـى الموسيقية كلها بأنّها لخدمة التوسع (الكولونيالي= الاستعماري).[2]

سحر الشرق

أصبحـت الدراسات المتعلقة بالفنـون الشرقية وإبداعـات الفنانين المتأثرة بالشـرق، جزءاً من مظلـة النشاط الاستشراقي في الشـرق عموماً. فقد تمّ فتـح الأبواب الشرقية المغلقة بالترسانـة العسكرية الغربية، وقد استطاعت

(1) يذكر أنّ ألبوم رسوم لورانس العرب، محفوظ في جامعة تكساس.

(2) راجع: السلطاني، فاضل: الواسطي كفنان حر قرأ الواقع كما هو لا كما يتمناه، صحيفة الشرق الأوسط، لندن، العدد (9369)، 2004/7/23 ص 18.

عواصم الشرق الوادعة والغارقة في الجمال والغرائبية أن تستقطب الفنانين الغربيين الذين أنتجوا لوحات تحولت في جزء كبير منها إلى تراث شرقي بأيدي غربية، حيث كانت ظاهرة الاستشراق في الفن ذات ضرورة للبحث والنقد. لقِدَمها في الرحلة وتنوعها في الشكل، فكان التأثير الواضح في النتائج. وكان لامتداد الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط والأندلس ثم القسطنطينية أثر واضح، فقد شكّل هذا الامتداد المكاني شرقاً وغرباً، والامتداد الزماني عبر ستة قرون مجالاً في الاستشراق الفني، الذي أثر بشكل مباشر في الفن الأوروبي في عصر النهضة، حتى القرن التاسع عشر[1]. لقد تميز الفن الشرقي بالعراقة والأصالة والتفرد، وكان ذا جاذبية مثّلتها هُويته التي أهلته أن يصبح تراثاً إنسانياً تستلهم إيحاءاته ورمزياته لتظل نبعاً تاريخياً فياضاً على غرار الفن الإغريقي والروماني والفرعوني. ولم تتوقف حركة التأثر عند الشرق العربي بل وصلت إلى الشرق الأقصى فقد تأثر الاستشراق الفني الأوروبي بالفن الهندي والصيني والياباني وفنون القارة الأفريقية. وكان هناك دور مهم للرحّالة والحجاج الأوروبيين في نقل ما شاهدوه في البيت الشرقي البسيط وتداول تلك الصور واللوحات في أوروبا، ومن الفنانين الفرنسيين الذين تأثروا بالبيئة الشرقية وصَوروها بأدق التفاصيل: المستشرق (برشير)، و(غي دوموباسان) ومنهم (أوجين فرومنتان)، (1820 – 1876) وهو رسام وكاتب، ويعدُّ من أشهر الفنانين المستشرقين، ومن أبرز لوحاته (الصيد بالصقور) و(أرض العطش) التي رسمها عام 1869، فهي تصور الصحراء بقسوتها وسمائها الصافية.

وكان الاستشراق في الفنون والآداب، من الظواهر السائدة والمعروفة، لقد ابتدأ منذ قرون طويلة، ولم ينتهِ حتى الآن، كما في أعمال صاحبي نوبل

(1) راجع: حسني، د. إيناس: القاهرة تشهد روائع فن الاستشراق، مجلة دبي الثقافية، العدد (79) ديسمبر/ كانون الأول 2011 ص 85.

للآداب (أندريه جيد)[1] و(ألبير كامو)[2]، كل ذلك لِمّا يتمتع به الشرق من سحر وجمال وشمس مشرقة تمنحه مزايا خاصة، أدهشت الفنانين والتشكيليين الغربيين، مما دفعهم إلى تجسيد الحياة الشرقية اليومية في لوحات فنية ملأت صالات العرض والمتاحف والقصور في العالم. فعندما كان المستشرقون يقومون بزيارة العالم العربي فإنّ أول ما كانوا يريدون أن يتعرفوا عليه هو آلة العود، وهكذا نقلوا في لوحاتهم الاستشراقية دائماً جواري وغلماناً يعزفون على هذه الآلة، وأصبح العود رمزاً لعالم الشرق، فمجرد حضوره في لوحة ما كان يشير إلى الشرق بمباهجه وفتنته كما رسمها الفنانون المستشرقون.[3]

وفي هذا الإطار كان الموسيقي الروسي الكبير (نيقولاي رمسكي- كورساكوف)، (1844 – 1908)، وقد اشتهر في العالم كله وطوال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، بمواضيعه الأسطورية الشرقية التي كان يمزجها بالابتكارات الغربية، فإننا نعرف أنّ القصيدة السمفونية (شهرزاد) هي الأشهر بين أعماله، لا يضاهيها في هذا إلا عمله (الشرقي) الآخر (عنترة)، عُرِفَ رمسكي، بنزعة شرقية. ويمكن أن نقول بالطبع استشراقية، فقد تخيل هذا الموسيقي الشرق بأعماله الرائدة[4]. حيث اشتركت تلك الأعمال الفنية في تقديم صورة ذهنية وحسية تُلبي الفهم الغربي للشرق، وقد كان لأساطير الشرق الغامض وفق المنظور والتصور الأوروبي، نقطة ارتكاز نهضت عليها خيالات الكتاب والفنانين الغربيين ومن هنا ولدت غالبية الأعمال الاستشراقيّة.

(1) أندريه جيد: (1869 – 1951)، كاتب فرنسي فاز بجائزة نوبل للآداب في عام 1947.

(2) ألبير كامو: (1913 – 1960) فيلسوف وجودي وكاتب مسرحي وروائي فرنسي-جزائري.

(3) راجع: سيف، د. بسمة محمود: العود تصوير عبر الوتر، المجلة العربية، الرياض، العدد (420) ديسمبر/ كانون الأول 2011 ص 68.

(4) راجع: العريس، إبراهيم، صحيفة الحياة، اللندنية، العدد (16883)، 25 حزيران/ يونيو 2009 ص 10.

وقد شهدت الفترة التي تلت عصر النهضة الأوروبية عادة الحج إلى الأراضي المقدسة فجاءها الرحَّالة: حجاج، شعراء، جنود، روائيون، فلاسفة، مغامرون، مبشرون، عشاق فاشلون، سياسيون. وعدد ضخم من السياح الذين أججتهم الروح الرومانطيقية أو دفعهم الفضول الرومانطيقي إلى رؤية الديكورات الشرقية، والسلوك والعادات الشرقية، والوقائع الحياتية الشرقية، أو الذين دفعتهم الموضة والانطلاقة الأدبية لتصفح ألوان براقة وملونة من الغرائبية والحكايات المثيرة عن قطاع الطرق.

وقد تمكن المفكر إدوارد سعيد[1] في كتابه (الاستشراق) من نقد تلك الظاهرة وأكد على أن المستشرقين على اختلاف اهتماماتهم ومنها الجانب الفني/ التشكيلي، عبارة عن أداة في المشروع الكولونيالي/ الإمبريالي.

في رحاب الشرق

أنتج الرحَّالة والكُتّاب الغربيون سلسلة من الصور تدور في مجملها حول انهماك الشرق في الفسوق، نزوعه إلى الاستبداد، عقليته الشاذة، سذاجته، تخلفه[2]. وكانت بعض الصور واللوحات تتميز بحس فضائحي واضح المعالم. كانت صوراً نمطية عن الشرق وأهله، وقسم كبير من اللوحات الاستشراقية كانت تُبنى من خلال مخيلة الفنانين الغربيين على الرغم من واقعيتها الشديدة ولكن لا أساس لها في الشرق. فكانت الساحة الشرقية حسب الأوروبيين خالية من كل إنجاز علمي وقوامها: النساء، القصور الفارهة، العبيد، وكان الغربيون قد أظهروا ولعهم بالرقص الشرقي، حتى أنهم نقلوا هذا اللون من (الفن) إلى بلدانهم وقاموا بإنشاء مدارس خاصة

(1) إدوارد سعيد: (1935 – 2003)، مُنظر أدبي ناقد وأكاديمي فلسطيني- أمريكي. كان أستاذاً جامعياً للغة الإنكليزية والأدب المقارن في جامعة كولومبيا. من أبرز مؤلفاته كتاب (الاستشراق) الذي صدر عام 1978.

(2) راجع: أحمد بن راشد بن سعيد: 35 عاماً على الاستشراق، موقع الجزيرة، نت، 2016.

وبإشــراف مدربين من الشرق. وكان من بين الأسماء الغربية في مجال الفن الاستشراقــي: فلوبير، ونرفــال، وبيرتن، ولين، كان ذلــك بعد العام 1800، فقــد أراد المستعمر الأوروبي عــبر (المستشرقين) الهيمنــة على الجغرافية والبيئة والإنسان الشرقي وتسخيره لخدمة المشروع الكولونيالي وتجريده من مبادئــه وأخلاقياته وتحويله إلى مجرد آلة تقدم خدمات للقادمين من وراء البحار، وكانت النساء لهــن النصيب الأوفر في المشروع الاستشراقي. حيث ركز الفنانــون المستشرقون على هــذا الجانب وصــوروه بأسلوب فضائحي. ويــرى غالبية المستشرقــين أنّ كتاب (ألف ليلة وليلــة) كان أول الطريق إلى الاستشــراق، وانتشار حركته في الغرب. فقد أنتج النص الاستشراقي صوراً نمطية عن النساء في المجتمعات المُستعمرَة، اتخذت في الغالب طابعاً تخيلياً يرتكــز إلى ثلاثة أنماط: الحريم الشرقــي، البطريركية، الإيروتيكية، وقمع الإســلام للمرأة المسلمة. تجاوز الباحثون في الغرب ثقل الاستشراق بوصفه (نمطاً من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة السيطرة عليه).[1]

الحرملك

تشكلــت المــرأة الشرقية في مخيلــة الفنانين الأوروبيين عــبر منظومة أيقونية ساهــم فنانو القرن التاسع عشر في تثبيتها، حيــث كانت العلاقة الرومانسية بالمــرأة الشرقيــة من قبل الرسامــين الأوروبيين الوافدين إلــى الشرق علاقة جمالية وإبداعية فريدة. وفي مقدمتهم: (هوراس فرنيه، شاسيرو، دي لاكروا، شامارتين، أرسيل، فلاندين، ليــون جيروم، رودلف أرنست)... فالشرق وفق تصــورات المستشرقــين مــن الفنانين الغربيين ليســ شرقاً حزينــاً، بل شرقاً حيويّاً، وخاصة أنّ النساء هنا لديهنّ أنوثة أكثر من النساء في الغرب.

---

(1) راجــع: فــرج، ريتا: الدراســات النسوية ما بعد الكولونياليــة، صحيفة الحياة، اللندنيــة، 16 أيار/ مايو 2015.

وفي لوحات بعض الفنانين الأوروبيين، تحولت المرأة الشرقية –تبعاً لخيالاتهم المريضة– إلى نماذج عارية فاحشة، كما صَورها الفرنسي دومنيك أنجر[1]. (D. Ingres) – في مجموعته الشهيرة عن حمامات النساء، حيث كان مولعاً (بالحريم التركي) في لوحاتِه، كما في لوحته الشهيرة (الحمام التركي) وهي رسم لجمهرة وصيفات عاريات يكشفن بواطن جمالهن ونظافتهن وهن يستحممن وقبلها لوحة (الوصيفة الكبرى) وهي امرأة مستسلمة ترفل في بذخ مزخرف يحفها الحرير والريش والفرو، فهو يكشف عن النظرة الغربية للمرأة على أنها إكسسوار فقط، كما وصفها (موليير) في أكثر من مسرحية من مسرحياته التي استوحاها من المجتمع الأرستقراطي، وأيضاً عمانوئيل كانط أحد المفكرين التنويريين في بعض آرائه الفلسفية، فالمرأة برأيهم كلما زاد عقلها نقص جمالها وبالعكس.[2]

وينسحب ذلك على الفنانين: فردريكو بارتولين، ألبرتو باسيني، فانمور، جليير[3]. وقد بدأت صورة المرأة تظهر في الفنون التشكيلية مع ازدهار الفن الاستشراقي في القرن التاسع عشر، ولطالما شكلت المرأة العربية مكانة هامة لدى الفنان الغربي، وذلك لما للشرق من سحر وجاذبية كانت حافزاً للتعبير عنه، ولذا كانت المرأة هي الموضوع المفضل وقد تجلت في صور مهمة كان أبرزها المرأة الشرقية المرتمية بين الوسائد الحريرية المتلفعة بالأردية الثمينة.[4]

ومن هنا كان الفنان الفرنسي (دولاكروا) –الضابط العسكري الفرنسي

(1) جان أوغُسْت آنْغْرْ: (1780 – 1867) رسّام فرنسي من تلاميذ الرسّام جاك لوي دافيد، تميز بصفاء رسوماته وحُسنها.

(2) راجع: السيد، ناظم: أيديولوجيا المرأة النحيفة؟!، مجلة النقاد، بيروت، العدد (102) 8 نيسان/ أبريل 2002 ص 25.

(3) راجع: علي، عبده عرفه: الحرملك.. في الفن الاستشراقي، المجلة العربية، الرياض، تاريخ 2016/1/11.

(4) راجع: صحيفة النور: صورة المرأة في الفن التشكيلي، العدد (747) تاريخ 2016/11/30.

الـذي اتجه صوب الجزائر- والـذي يُعدُّ زعيم الفنانـين الرومانتيكيين من أكـثر الفنانين اهتماماً بتتبـع أسرار الشرق العربي عـبر لوحاته التي كانت تصـور النساء بكل تفاصيل حياتهـن وأزيائهن. فقد سافر ذلك البرجوازي الفرنسي العتيق إلى إسبانيا والشمال الأفريقي العربي، في مهمّة دبلوماسية تجسسيـة، تلك الرحلة والمهمة أثرت كثـيراً في عمل (دولاكروا)[1] الفني من حيث اطلاعه على عوالم الحياة الشرقية، وتمكنه من الوصول إلى قلب عالم (الحريم) المحرم دخوله، حيث تمكن من التجول فيه بكل حرية، وقد شكلت لوحاته تصويراً واقعياً لذلك العالم السريَّ. وقد زامله الفنان (بيار أوغست رينوار) (1841 – 1919)[2]. أحد أهم رواد المدرسة الانطباعية.[3]

حيـث استطـاع مـن خـلال لوحاتـه أن يحفر اسمـه على جـدران المدرسة الانطباعيـة الأوائـل. وصنفه النُقاد الفنيـون بعبقري الفـن التشكيلي منذ رسمـه لوحته الأولى (امرأة باريسية بملابـس جزائرية)، حيث أصبح أحد رواد الفن الانطباعي في بداية ظهوره، نظراً لقدرته الخارقة في رسم الملامح والنفسيات والتحكم في توظيف اللون.

وكان (رينـوار) أول رسـام أوروبـي انطباعـي يرسم مشاهـد مباشرة من الجزائـر، وقبلـه كانـت الكلاسيكيـة والرومانسيـة مهيمنتـين على معظم اللوحات الفنية، والتي رسمها فنانون أوروبيون (ألمان، فرنسيون، إيطاليون)،

---

(1) يوجـين دولاكـروا: رسـام فرنسي، ولد في العـام (1798) في فرنسـا، وقد انتمى إلى أسـرة بورجوازية عريقـة، مـن رواد المدرسـة الرومانسية الفرنسية. لـه العديد من اللوحات الفنيـة المحفوظة في متحف اللوفر وغيره. من أشهر لوحاته الجزائريات التي رسمها عام 1830 ويبدو فيها تأثره بسفرته إلى شمال أفريقيا. توفي دولاكروا في العام (1863).

(2) بيـير أوجاسـت رينـوار: (1841 – 1919) رسـام فرنسي. ولـد في فرنسا لأسرة عاملـة. وهو من رواد المدرسة الانطباعية، اهتم في أعماله بتصوير الملامح البشرية ومشاهدات من الحياة العامة السعيدة.

(3) الانطباعيـة: هـي مدرسة فنية أوجـدت في القرن التاسع عشـر. اسم الحركة مستمد مـن عنوان لوحة للرسـام الفرنسـي كلود مونيه، (انطباع شروق الشمس) التي قام بإنجازها عام 1872م، وكان أول من استعمل أسلوباً جديداً في التصوير، فقد اشتق اسم المدرسة الجديدة من اسم لوحته: الانطباعية.

كان رينوار وباعترافه يسير علـى خطى سلفه الفنان العملاق (ديلاكروا)، وعـن النسـاء الجزائريات التي حـاول رينوار مراراً رسمهـن بشكل مباشر لكنه فشل فقد كانت أجمل لوحاته عن النساء الجزائريات من وحي الخيال وليس الواقع.

أمَّـا (دولاكروا) وقد امتد تأثير لوحاته الجزائرية إلى أن تأثر بها الإسباني (بابلو بيكاسو) (1881 – 1973).

فقد كانت اللوحات الاستشراقية المرسومة قبل عام 1850 تنتمي للكلاسيكية الجديدة والرومانتيكية والواقعية في أسلوب الرسم، أما بعد عام 1850 فقد كانت ذات اتجاه انطباعي أو وحشي.[1]

حيـث يصف الرحالة الإيطالي كارلو جوارماني جمال نساء البادية من خلال رحلتـه إلى بلاد عنيزة في القصيم السعوديـة بقولهِ: (خرجت من ديار شمر دون أن أتعرض لأي مكروه، بل على العكس من ذلك لقيت كل اعتبار.. ولهؤلاء نسـاء بشرتهن سمـراء مثل نساء القرى الواقعة علـى ضفاف النيل وعيونهن حـوراء لوزيّة وتفيض بالنار التي تقدح مـن أحداقهن السود)[2]. بمقابل ذلك كان بعض الرحَّالة الأوروبيين الذين قد نالوا من مكانة المرأة العربية والشرقية عموماً، مثـل الكاتبة البريطانية (هريت مارتنو)، فـإن مارتنو اعتمدت على المفاهيـم المتبلورة في مفهـوم (الحريمHarem) الذي دخـل اللغة الإنكليزية لفظـاً مستعاراً ليكتسب هالـة واسعة من المعاني السلبيـة التي تحط من قدر المـرأة المسلمـة كما هي مصـورة في الثقافـة الغربية، باعتبارهـا (مخلوقاً) حبيساً في البيت، وموضوعاً لاستثمار الرجل الأسمر واضطهاده.[3]

---

(1) راجـع: البطاط، يحيى: الرسم الاستشراقي وتأثـيرات الثقافة العربية، مجلة دبي الثقافية، دبي، العدد (75) أغسطس/ أب 2011 ص 61.

(2) راجـع: كاصـد، سلمان: كارلو جوارمـاني الجاسوس الإيطالي الأفّاق، صحيفة الاتحـاد، الإماراتية، 26 تشرين الثاني 2009 ص 13.

(3) راجع: عويس، محمد، صحيفة الحياة (م)... سابق.

أمَّـا (ريتشارد بيرتون)[1] فقد اعتبر أوضاع المـرأة العربية أفضل بكثير من أوضـاع المرأة الغربية. ومـن أبرز الفنانين الغربيين الذيـن تأثروا بالشرق، الفنان السويسري التجريدي (بول كلي 1879 – 1940).[2]

فقد كان الفن العربي يطبع لوحات ذلك الفنان. حيث تمثّل الشرق له بدولتين (تونس– مصر)، أمَّـا الفنان الفرنسي (يوجين ديلاكروا) الذي ينتمي إلى المدرسـة الرومانسية، حيث صَنّفهُ بعض النُقاد ضمن التيار الانطباعي كان لـه تأثير على رمـوز الفن الحديث وفي مقدمتهم بيكاسـو[3] حيث وصل عدد لوحـات (ديلاكروا) بحدود مائة لوحة جسدت الحياة الشرقية ولا سيما في المغرب حيث كانت أولى محطات رحلته الشرقية.[4]

حيـث بقيّ (دولاكروا) ينهـل من كنوز ما ادخره من خلال إقامته في الشرق حتـى نهاية حياته، تاركاً أروع اللوحات الشرقية العربية فقد برع في تصوير العلاقة الحميمة بين العربـي وحصانه، فقد نظر العرب إلى الحصان على أنـه أحد أفراد العائلة، فقد كانت النظـرة العربية للخيول لها دلالات دينية وروحانية واجتماعية.

وأيضـاً الفنان (هنري ماتيس)[5] والذي لخص أهدافه عام 1908 بالوصول

(1) السـير ريتشارد فرانسيس برتون: (1821 – 1890) مستكشف ومستشرق وعسكري ومترجم إنجليزي من خلال ترجمته لحكايات ألف ليلة وليلة.

(2) بـول كلـي: (1879 – 1940)، هو رسام ألماني ولد في سويسرا ، تترواح أفكاره بين السريالية ، التعبيرية والتجريدية.

(3) بابلـو بيكاسـو: (1881 – 1973) ولـد في مالقـة، إسبانيـا – تـوفي في موجان، فرنسـا) رسام ونحات وفنـان تشكيلي إسباني وأحد أشهـر الفنانين في القرن العشرين وينسب إليه الفضل في تأسيس الحركة التكعيبية في الفن.

(4) راجع: بدوي، فابيولا، مجلة دبي الثقافية، العدد (78) تشرين الثاني/ نوفمبر 2011 ص 126.

(5) هـنري ماتيس: (1869 – 1954) هو رسّـام فرنسي. من كبار أساتذة المدرسة الوحشية (fauvisme) تفـوق في أعمالـه على أقرانـه، استعمل تدريجات واسعة مـن الألوان المنتظمـة، في رسوماته الإهليجية (كانـت تُعْنى بالشكل العام للمواضيع، مهملة التفاصيل الدقيقـة)، يعتبر من أبرز الفنانين التشكيليين في القرن العشرين.

إلـى (فـن متوازن ونقي وهـادئ) وتـدل أعماله على أنه حقـق هذا الحلم، أو علـى الأقل القسـم الأكبر منه، كمـا في لوحته (الوصيفـة ذات السروال الرمـادي) والتـي رسمها عـام 1921 أي في مرحلة كان منجـزاً فيها إلغاء التمايز الجنسي بـين الرجل والمرأة وغيرها من قضايا الحرية والإنسان في الغرب. والفنـان (بول كلي). والألماني (بيتر فون هيس) (1792 – 1871)، و(الإنجليزي وليام آلان) (1782 – 1850)، والأسكتلندي (دافيد روبرتس) (1796 – 1864)، والـذي رسـم معـالم مصـر وآثارها ومدنهـا المترامية، عـبر رحلته إلـى الشرق (1838 – 1839)، ومن أعمالـه التي وضعته ضمن المستشرقـين الكبار من الفنانين الأوروبيـين، (قناطر على النيل)، و(جامع الغـوري)، و(قصـر محمد علي)، وهناك لوحات شرقيـة لبروبرتس تصور (البتراء) الأردنية، وأخرى (للمعبد الكبير) في بعلبك اللبنانية.

وكان للفنانـين الإسبـان اهتمامهـم بالشرق، حيـث كان للفنـان (غويا)[1] حضور بارز في تجسيد الشرق عبر لوحاته، وهذا الفنان التشكيلي الفرنسي (آلان ماكس) الذي تميزت لوحاته بحس شرقي إسلامي، وتضمنت لوحاته تفاصيل الحياة اليومية للشرقيين بكل عفويتها، المقاهي، الأسواق، الحارات الشعبيـة، المناسبـات الدينيـة مـن موالد وصـلاة. فقد تنوعـت اهتمامات التشكيليين الفرنسيين من الطبيعة إلى العمارة إلى تفاصيل الحياة اليومية. وتركـز نشاطهـم بشـكل خاص علـى تصوير المـرأة في أعمالهـم وهي على شرفـات البيوت القديمـة المتلاصقة، وفي حلقات الرقصـ، ولعلّ من أشهر اللوحـات التـي جسدت المـرأة لوحة (بعد الشـروق في مصـر) للمستشرق ويليـام هولمان هنت. ولم تغـب الصحراء عن اهتمامـات المستشرقين حيث

(1) فرانشيسكـو غويـا: هو رسام إسباني سماه البعض أبو الفن الحديث. وُلـد فرانشيسكو خوسيه دي غويا إي لوسيانتيسـ في 30 آذار/ مارسـ 1746، في فنديتودوس، أراغـون، إسبانيا. وتوفي في نيسان/ أبريل عن عمر يناهز 82 عاماً.

رسـم المستشرق (تيودور شاسيرو ت 1856) خيام البـدو النساء البدويات بأزيائهن التقليدية.

الرومانسية

ومـن أبـرز الفنانـين الفرنسيـين الرومانسيـين[1] (ألفريـد دو هودنيـك) (1822 – 1882)، حيـث كانـت لـه إسهامـات واضحـة في رسـم الطبيعة الشرقيـة، وهو من المؤسسين لمدرسة الاستشـراق الفنية. والفنان الفرنسي جـان ليـون جـيروم (1824 – 1904م)، أمَّـا الفنـان الإيطـالي، (ديفيـد روبرتـس) (1796 – 1864) فقـد تمكن من تسجيل وقائع الحياة العامة في الجزائر، وكذلك المستشرق النمساوي (أرنست رودولف) (1854 – 1932) الـذي ركز اهتمامـه على العمـارة الإسلاميـة وزخرفتهـا[2]. ويُعـدُّ الفنان الفرنسـي المستشرق (تشارلز ثيـودور فريـر) (1814 – 1888)، من أبرز المستشرقـين الذيـن ذهبوا إلى مـدن إسلامية عدة (الجزائـر، إسطنبول، سوريـة، فلسطـين، مصر) وقد افتتـح مرسماً في العاصمـة المصرية، التي ظـلّ يتردد إليهـا حتى عام 1868 حين حضر افتتاح قنـاة السويس بصحبة الإمبراطورة يوجيني. لقد رسم النيل عند غروب الشمس، والأسواق العامرة بالنـاس، والنساء الريفيات عند ظـلال النخيل بأسلوب امتاز به عن أقرانه الذيـن وقعوا في غرام الشـرق، بصوره المرسومة بالزيـت على قطع خشبية صغـيرة، وبكتاباته بالحبر على ظهر اللوح، شارحـاً المنظر أو المكان[3]. وقد

(1) الرومانسيـة: كمـا تُعرف باسم الرومانتيكيـة أو الإبداعية ظهرت المدرسـة الرومانسية الفنية في أواخر القـرن الثامن عشر وأوائـل القرن التاسع عشر، وفسرت إلى حد بعيد ذلـك التطور الحضاري في ذلك الوقـت، الـذي ابتدأ مع تقـدم العلم وتوسع المعرفـة. وكان من أهـم وأشهر فنـاني الرومانسية كل من (يوجيه دي لاكرواه) و(جاريكو).

(2) راجـع: غبريـس، محمد: لوحـات المستشرقين في رسم العمـارة الإسلامية، مجلة دبـي الثقافية، العدد (75) أغسطس/ آب 2–11 ص 70.

(3) راجع: صحيفة الشرق الأوسط، لندن، العدد (9846) تاريخ 2/11/ 2005.

كان الفرنسـي أوجين فرومنتان (1820 – 1876)[1]، فنانـاً معروفاً وكاتباً، غلـب الطابع الاستشراقي علـى نتاجاته في المجالين، ناهيـك أنه ألقى على قطاعـات عريضـة من الفنانين الغربيـين نظرات جديدة لم يعـد في الوسع تجاهلهـا لـدى التعامل النقـدي أو التاريخـي معهم. فقـد كان (فرمنتان) مولعـاً برسم المناظر الطبيعية قبل أن يتوجه إلى الجزائر حيث عاش ورسم بعض أجمل الأعمال الاستشراقية هناك ووضع كتاباً عنها (عام في منطقة الساحل).[2]

وقـد كان تأثير الحـروب في القارة الأوروبية والثـورة الصناعية في إنجلترا وسطـوة الميكانيكيـة علـى حيـاة الفنانين الغربيـين ما دفعتهـم للبحث عن الرومانسيـة والهـدوء، وقد وجـدوا ضالتهم في الشـرق وعمارته ومساجده والحياة العامة في الشوارع والحارات والأزقة وحتى في القصور، وكان بعض الفنانـين ينفذون توجيهات الدوائر الاستخباراتية في بلادهم كما هو الحال مع (يوجـين ديلاكروا- هوراس فرنيه). فقد حـلَّ (فرنيه 1789 – 1833) بالجزائـر منجـزاً عـدة لوحات تُبـيّن انتصـار فرنسـا ونشوتهـا باحتلال الجزائـر، فقـد كان رساماً مجنـداً لتصوير الحملة العسكريـة على مدينة (قسنطينة)، والمثال الآخر على التداخل بين الاستشراق الفني والاستعماري مرافقـة الفنان (فيفيـان دينون) لنابليون بونابرت أثنـاء الحملة الفرنسية على مصر، فقد تمكن الفنانون من رصد تلك الحالات بلغة شاعرية رصينة على نهج الرسامين الكبار في عصر النهضة.[3]

(1) أوجين فرومنتان: (1820 – 1876) رسام وكاتب فرنسي.

(2) راجع: العريس، إبراهيم: أساتذة الزمن الماضي (لفرومنتان) فنون النهضة الإنسانية، صحيفة الحياة، لندن، العدد (16904) 16 تموز/ يوليو 2009 ص 10.

(3) راجـع: شاهـين، د. محمـود: حكايات الشـرق الساحـر، صحيفة الملحـق الأسبوعية، العـدد (725)- 2011/1/25 ص 8.

فقد وفـد الفنان الإيطالي الشهير (جنتيلي بللينــي)[1] إلى الشرق وتحديداً إلــى الآستانة بناء علــى طلب من السلطــان العثماني محمــد الثاني. وجاء بعده معاصره الفنان (كارباشيو) وقد كانت محور أعمالهم الأزياء الشعبية التركية وخصوصاً النسائيــة، وتم تجسيد ذلك في لوحة الفنان (لارجيليه) أو في لوحة (الكونت فيرجين).

ولم يتخلـف البرجوازي العنيـد (ألفونس إتيان دينيــه) (1861–1929)، عـن اللحــاق بالقافلــة المتجهة نحو الشــرق. فقد اتخذ مدينــة (بو سعادة) الجزائريــة موطنــاً له حيــث صور فيها أعظــم اللوحات الفنيــة التي تصور المــرأة الجزائرية وقــد استطاع اخــتراق الحصون المنيعــة والحصول على أجمــل الصــور الفوتوغرافيــة، نســاء في المسابــح والحمامــات والحدائــق والأعراســ والجنائز، كانوا يحرصون بدقة متناهيــة على رسم ما يطل من أثوابهــن الحريرية، من كعوبهن المرمريــة، وخصورهن وتموجات جسدهن الرفيعة تحت (القفطان)، لقد كنّ وادعات حالمات، تلك اللوحات نظر إليها بعضــ النقاد بتحفــظ والبعض الآخر بإيجابية علــى أساس أنها وثقت حياة الجزائريين بكل حيادية.[2]

وكانــت لوحة السجود الرائعة للفنان (إتيان دينيه)، وهو يحاول أن يجد له مكانــة ضمن أقرانه ممّن أسسوا لموجة الفن التشكيلي التي سميت فيما بعد بالفــن الاستشراقي الغربي الذي صاحب الحملــة الاستعمارية الكولونيالية علــى البلاد العربية في القرن التاسع عشــر، والذي رسم عدداً من اللوحات والتــي تصور مجموعة من المسلمين وهم يــؤدون الصلاة قرب أحد القلاع.

(1) جينتيلــي بيليني: (1429 – 1507) رســام إيطالي شهير، هو الابن الأكبر للرسام ياكوبو بيليني وشقيق الرسام جوفاني بيليني.

(2) راجع: مجلة دبي الثقافية، (م) ... سابق.

حيث حصل لديه انقلاب في النظرة إلى الشرق، لقد عاش (دينيه) تجربة متميّزة وأضفى على الرّسم الاستشراقي أصالته. من خلال رحلته الأولى إلى الجزائر عام (1883) فقد اكتشف من خلالها الجنوب الجزائري والذي شكل تغيّراً كبيراً في حياته وفنه، وقد فتن بطبيعته الساحرة، حيث يقول: (لقد اخترت الإسلام بعد أربعين سنة من الدراسة والملاحظة والتأمل في هذا الدين العظيم).[1]

يُذكر أنّ (دينيه) اعتنق الإسلام سنة (1913م) وتقلد اسماً جديداً (نصر الدين) وحجّ إلى مكة سنة (1929) قبل بضعة أشهر من وفاته. لقد أحب (دينيه) الشرق ببساطته وعمقه في آن واحد. وحسب الناقدة الإنجليزية (لين تورين) وهي من أكبر النقاد المختصين بالرسم الاستشراقي، فإنّ (إيتيان دينيه) الرسام الوحيد من دون الرسامين المستشرقين الذي يحاول فعلاً أن يُعَرف بالفن الإسلامي في الغرب[2]. فقد أصدر عدداً من الكتب أبرزها: (الشرق كما يراه الغرب).

ومن بين الرسامين الأوروبيين الذين فتنتهم شهرزاد والتي تعني باللغة الفارسية (العريقة الأصل)، الرسام الدنماركي كيي راسموس نيلسن (1886م – 1857م) الذي خصها بلوحة وهي تحكي حكاياتها الآسرة للملك شهريار[3]. لقد ساهم الاستشراق في إبراز وتصنيف وتوثيق (الهوية الجمالية) للفن الشرقي عموماً، وأهميتها وتجلياتها، ووحدة (الفكر الجمالي) في الفنون الإسلامية، وخصوصيته، وإبداعاته.

(1) راجع: سويلم، يحيى، مجلة العربي، الكويت، العدد (566) كانون الثاني/ يناير 2006 ص 110.

(2) راجع: وهيبة، نوي: أصالة الرسم الاستشراقي، مجلة العربي، الكويت، العدد (519)، شباط/ فبراير 2002 ص 206.

(3) راجع: حسني، د. إيناس: الاستشراق وسحر حضارة الشرق، الكتاب الشهري لمجلة دبي الثقافية (62)، مايو/ أيار 2012 ص 31.

التأثر الاستشراقي

كان هنـاك تأثير شرقي إسلامي واضـح المعالم في الفن والعمارة الأوروبية، فالزائـر اليـوم لإسبانيـا يرى مـدى تأثير العـرب في فن العمـارة تحديداً، فالتأثـير الإسلامي في الفنون الأوروبية بدأ مـن عصر النهضة ليمتد لأكثر من ستة قرون، ألم تصـل القوات العثمانية إلى أبواب العاصمة النمساوية؟ ألم يصل الأمويون إلى إسبانيا قادمين من البوادي العربية؟ وقد أثبت عرب الأندلس أنّ ليس هناك تناقض بين فقر عرب البادية والفن والجمال[1]. كما أنهم أثبتوا أنّ ليس هناك تناقض بين الفن الراقي والجمالية الأخاذة.

ولم يكـن العـرب يهدفون إلى طمسـ وتشويه تاريخ الآخر بـل كان التسامح وعـدم إنكار ما للآخر مـن دور في حركة التاريخ. ومـن دون شك أنّ الغزاة الذيـن سعوا إلى السيطرة على العالم إبّان عصر النهضة الأوروبي ساهموا في السمـات السلبية للشـق الشرقي للثنائي (شرق وغـرب)، وعمّقوا فكرة التمايز بين الشرق والغرب، وذلك لتبرير الغزوات والاستعمار. حيث نشطت حركة الاستشراق الفني، مما أدى إلى تأثر الأوروبيين كثيراً في عوالم الشرق الفنية وأساليب الحياة الشرقية، فطالعتنا لوحات: جنتيلي بليني، ورمبرانت وليونـاردو دافنشي، على سبيل المثال بهـذه الصورة الاستشراقية، وبلغ هذا التأثـر مـداه خلال اقتباسـ عمـلاق الأدب الأوروبي (دانتـي)[2] في ملحمة الكوميديا الإلهية كثيراً من أفكار قصة الإسراء والمعراج لأبي العلاء المعري في قالبهـا الفني والأدبي، وكانت قد شكلت هـذه الملحمة مصدراً لإبداعات

(1) راجـع: الريّسـ، رياض، الجانب الآخر للتاريخ (أسفار صحّافي في طـرق العالم)، الناشر رياض الريّس للكتب، بيروت، الطبعة الأولى 2007، ص 196.

(2) دانتـي أليغيـيري: (1265 – 1321) ويعـرف عادة باسم دانتي وهو شاعر إيطـالي من فلورنسا، أعظم أعمالـه: الكوميديـا الإلهية المكونة من ثلاثة أقسـام الجحيم، المطهر والفردوس، يعتـبر البيان الأدبي الأعظم الذي أنتجه أوروبا أثناء العصور الوسطى، ومعروف دانتي في الأدب الإيطالي بالشاعر الأعلى. ويسمى أيضا دانتي (أبو اللغة) الإيطالية.

المصورين الأوروبيين على امتداد عصر النهضة والقرن التاسع عشر.[1]

كان هـذا الباحـث الشـاب ذكياً وماهـراً، استطـاع الوصول إلـى السواحل الجنوبيـة لإيران قادماً من الهند، بالتنسيـق مع السفير البريطاني آنذاك، فبدأ بكتابة بحوثه حول إيران والإيرانيين.

وفي القـرن السابـع عشر والثامن عشر أخذ الاستشـراق بالانتشار حتّى أنّ كتـاب (كلستان سعدي) طبـع لأوّل مرّة في أوروبا خـلال تلك الفترة. وكان (فريديريـك آرثر بريدجمـان[2]) (1846 – 1928) رسامـاً متفانياً، وكان أحد أكثر الرسامين المستشرقين إثارة للاهتمام.

المعالم الشرقية وأثرها في كتب المستشرقين

كانـت اللوحـات الفنية التي أنتجهـا المستشرقون قد ساهمـت إلى حدٍ كبير في تدعيم ثنائية الشـرق/ الجنس. فأظهروا المرأة المسلمة أو الشرقية وهي جالسـة في الحمامـات النسائيـة العامة، وتعمـد الرسامـون الغربيون على إظهار المرأة وهي عارية، وهي محاطة بالوسائد الوثيرة.

لقد أراد المستشرقون على إسباغ صفة الرومانسية على الشرق، فكانت تلك البقعـة من العالم وكأنها بحاجـة إلى إعادة اكتشـاف، وبالتالي العمل على إعادة صياغة المفاهيم في هذا المكان من العالم عَبْرَ أساليب حديثة.

فقـد كان للمـرأة الشرقية النصيب الأكبر من اللوحـات الاستشراقية وكان هوس المستشرقين بما كان يسمى بـ(الحريم)، – والذي امتد من العصور الوسطى حتى مطلـع القرن العشرين–، ذو جاذبية خاصة، فحاول عدد من فنـاني الغرب محاولة فك رموز الحريم الشرقي، ومنهم الرسام البريطاني

---

(1) راجع: فايد، محمد: ألف ليلة وليلة، المجلة العربية، الرياض، العدد (411) آذار/ مارس 2011 ص 69.

(2) فردريـك آرثـر برديجمـان: (1847 – 1928)، رسام، ولـد في توسكيجي، الولايـات المتحدة – توفي في روان، فرنسا.

(ويليـام جيمسـ موللر) الذي كتـب في القرن التاسع عشـر انطباعاته عن سوق الجواري، والتي تظهر كيف تحولت الجارية إلى شبه كائن إنساني، بل يمكن القول إلى حيوان داجن له استعمالاته الخاصة. وفي العصر ذاته كتب المستشرق (جيراردي نيرفال) عن هذه السوق أيضاً.[1]

ولم ينجـح منهـم سـوى (دولا كـروا) الفرنسي بحكـم استعمـار الجزائر لــ(130) سنـة من قبل الفرنسيـين، حيث استطاع رؤيـة (الحرملك) في الجزائر، فقد كان موضوع (الحرملـك) من الموضوعات التقليدية في الفن الفرنسـي، خاصة تصوير حياة البـلاط العثماني وما يضمه من (محظيات وجوارٍ)!.. وقد جسد تلك الرؤية التاريخية بالنسبة له بـلوحة نادرة أسماها (نساء الجزائر). ولم يبق الحال مستقراً بالنسبة للرؤية الغربية للاستشراق وخصوصـاً الفنـي، ففي العام 1842 أكد الفنان (أدغـار كينيه) عن نهضة شرقيّـة حاملة للإنسانية الجديدة، وكان التيار الغالب هو الرومانسي. ومن هنا أصبح الفـن الاستشراقي له متابعون في الغرب والشرق على حدٍ سواء. لا بـل هناك مـن يقـول إنّ مجتمع الحريم انتقـل من الشرق بعـد انقراض صورتـه القديمة ليتحـوّل إلى الغرب بصورة جديـدة. والسؤال الذي يطرح باستمرار، فقد كانت كثير من اللوحات التي رسمها المستشرقون مبنية على أفـكار متخيلـة تجاوزت واقعيتها. ونلاحـظ بِأَنّ الشـرق يكتشف طبيعته في كثـير من أعمـال المستشرقين الفنية، فهل يتفق الرسـم الاستشراقي مع ما ذهب إليه إدوارد سعيد من أنه تعبير عن رغبة نفسية عميقة للهيمنة؟ ولكن هناك مـن يصف أعمال (لوحـات) الفنانين المستشرقـين الأوروبيين بأنّها وثائـق تاريخية مرئية لَمعلـم الهندسة المعمارية العربيـة الإسلامية وأشكال

(1) راجـع: الشمـالي، سامـر: عالم الحريم (شهـادات حية لمؤلفة تركيـة، المجلة العربيـة، الرياض، العدد (387) أبريل/ نيسان 2009 ص 95.

المـدن والقرى والأسواق والأزياء، وبالتالي فن الاستشراق الذي بات مطلوباً ومرغوبـاً، ليس من قبل الأوروبيين فحسـب، بل ومن قبل الشرقيين أنفسهم بدليـل حركة النسخ والتقليـد القائمة على قدم وسـاق في حياتنا التشكيلية العربيـة المعاصرة، لروائع هـذا الفن. حيث مثّل الفـن الاستشراقي مرحلة تاريخية كاملة واكبت حركة الاستشراق الأوروبي عندما كانت في أوجها. من خـلال سحر الشرق وألوانه الزاهية التي سادت في القرن التاسع عشر، وقد ذكر (كاستانياري) أحد النقاد الفنيين عام 1876 عن (موت الاستشراق)، حيث يقـول: (إن الفنانـين الاستشراقيين قـد يستطيعون مداعبـة خيالنا، ولكنهـم لن يستطيعوا ملامسـة مشاعرنا). ويضيـف: فالاستشراق لم يعُد موجوداً، حيث إن (موضته) الثقافية قد انتهت.

في حـين يقول الكاتب والباحـث الفرنسي فرانك مرميه: (لقـد كُتِبَ الكثير عن الشرق إلى درجة أن من سيعود إلى هذا الموضوع سيتهم بالرعونة).[1]

(1) راجـع: أحمـد، د.ناصر، (الاستشراق الفنـي) يوثق (الهوية الجمالية) للفـن الشرقي، الخليج أونلاين (مدّونة)، 2014/11/26.

الخاتمة

لا يمكن للختام إلاّ أن يكون بصيغة تساؤليّة حادة؛ هل مازالت نظرة الغرب إلى عوالم الشرق، هي النظرة الحالمة ذاتها تجاه كل ما هو غريب ومختلف ومنتم لخيالات المستشرقين (الجدد)، كما هي في كلاسيكياتهم المعروفة والمتداولة؟

وهل الاستشراق الغربي يندرج ضمن المعنى السلبي للاستشراق، في معنى الاستشراق المسموم والخبيث والمتواطئ وغير البريء بتاتاً؟ فقد حفلت أبحاث بعض المستشرقين بالكثير من السموم والمواقف العدائية التي يُعرفُ بها أعداء الإسلام الذين لا يقلّون عماءً عن الظلاميين من غلاة المستشرقين. حيث يعمد المستشرقون إلى استخدام مختلف العلوم للسيطرة والغزو؛ ويندرج صراع علماء الاستشراق كمقدمة لصراع القوى السياسية والعسكرية والمخابراتية والتي كان أغلبية ليست قليلة من أولئك المستشرقين تأتمر بإمرتهم. في السِجالات حول مناهج الاستشراق الكلاسيكي، هناك نقاش دائم حول بعض تلك المناهج وبخاصة تلك المناهج التي رأت في المجتمعات غير الغربية، الشرقية والإسلامية تحديداً، جموداً ثقافياً ودينياً دائماً، ورسوخاً في البُنى التقليدية يمنع تلك المجتمعات من التقدم والتأقلم بحسب تغيرات الحياة السياسية والاقتصادية والعلمية. بحسب هذه النظرة تبدو المجتمعات الشرقية ثابتة، تألف إلى قديمها وتتمسك به، تخاف من الجديد وتبتعد منه، وتتفادى المغامرة الفردية، على خلاف المجتمعات الغربية التي لا تخضع لأية قيود تقليدية أو دينية في تحديد استجاباتها لأية تحولات. بوصلتها في القبول والرفض ظرفية ومصلحية يحددها المزاج العام وقبول الأغلبيات.

وقد انتقدت وقوضت تلك الأطروحة باعتبارها تقارب العنصرية إنّ لم تعبر عنها صراحة، بيد أن ما تطور من أطروحات في مرحلة ما بعد التحرر من

الاستعمـار وتقويض أركان النظرات العنصريـة الاستشراقية لا يتعدى بعضه إعادة إنتاج للمقولات القديمة نفسها لكن في شكل أكثر سوءاً.

إن مـا ينطبـق على المجتمعات الغربية من قيم وسياسـة وحقوق إنسان ربما لا ينطبق بالضرورة على المجتمعات الشرقية.

فهـل تتجـه العلاقة بـين المستشرقـين ودعاة نقـد الاستشـراق أو الاستشراق المضـاد إلى صـراع معرفي دون الانصياع إلى المؤثـرات السياسية ذات الأبعاد الاستعماريـة، أم إلى تبـادل للمعارف والثقافات بعيداً عـن كل أوجه الصراع التي طبعت العلاقة بين الغرب والشرق؟

لقـد كانت حقاً أهدافاً (مستترة) في عقول غالبية الباحثين أو (المستشرقين) الغربيين. ولكن على النقيض من ذلك يرى بعض المثقفين العرب، بِأَنَّ الاستشراق قـدم خدمات جليلة وخصوصاً في مجال الفـن الاستشراقي وبعض الترجمات لكبار المفكرين العرب، ولم يكن دافعه إلى ذلك السيطرة ولا الهيمنة بالدرجة الأولـى وإنما حب الفضول المعرفي ومتعة الكشـف العلمي. ويضيف آخرون بِأَنَّ لـه أيضاً مواقف مخزية جـداً، في جانب آخر، وإذا كانـت ثمّة مراجعة غربية آنيّـة، على الأقل أكاديمياً، لمقولات الاستشـراق ومضامينها، فإنّ هناك حاجة عربيـة ماسة للقيام بالشيء ذاته وذلـك حتى لا تتجدد مصائبنا ومآسينا. إنْ لم نقـم بأي دور فاعل ولم نؤسس أي معاهـد لا للعناية بالمستشرقين، ولا حتى لنوازيهم بدراسات تشمل الغرب والإستراتيجيات الأوروبية والأمريكية... هذا الغرب الحاضر في حياتنا يوميـاً، في المقاهي والمطاعم والإعلام واللغة فعلينا أن نـدرك أهمية فتح تلـك المراكز والتأسيس لها، حيـث لم يفهم المستشرقون الاستعماريون اليابـان قبل الحرب العالمية الثانية، حقدوا على صعود الصين، العـالم العربـي والإسلامـي تُنكِر إنْ جاز التعبـير، أمريـكا اللاتينية هامشية نـاس لا وجـود لهم، آسيا عبارة عـن (متسولين)، ولا ننسى القـارة الإفريقية

فهـي تعتبر في نظر الغرب حديقة خلفية له، فأزمة الفهم الغربي لتغيير العالم هـو كان مدعـاة كتابة بحـث الاستشراق في أزمـة في ستينات القـرن الماضي فالاستشــراق لم يعـد يفي بما يمكـن أن يقدمه من دراســات.. لابد من إقامة ساحة واسعـة للجلسات المقارنة والاجتماعيـة والإنسانية من مختلف نوعيات المجتمعـات، هنـاك أمَة أوروبـا غربية، أمَة جديـدة في أمريـكا، أمَة مختلطة أمريـكا اللاتينيـة، أمة قبائلية لم تتكون بعد في أفريقيـا، أمة قديمة حضارية في العـالم وهكـذا، يعني كان الهدف هـو إحداث أو الدعوة إلـى تكوين ساحة واسعة جديدة من الفهم المقارن بالظواهر الإنسانية والمجتمعية في عالم جديد دون استثنـاء ثلاثـة أرباع العالم لأنـه شرق هامشي غير مفهـوم يريدون أهل الشرق دائماً رافعين أيديهـم مستسلمين أمام الدول الأوروبية المُستَعمِرة؛ أين هذا النظام الذي يتحدثون عنه.

يقـول المفكـر السـوري هاشـم صالـح: هـل نجـرؤ علـى ترجمـة مؤلفاتهم (المستشرقـين) الذيـن يكتبـون عـن تراثنـا وديننا إلـى اللغة العربيـة وبقية اللغـات الإسلامية الأخرى كالتركية والفارسية والباكستانية (الأوردو)؟ حتى الترجمة ممنوعة! سمعت بِأَنَّ الإيرانيين والأتراك أصبحوا يتجرؤون على ذلك ويترجمون أحـدث الدراسات الاستشراقية دون خوف أو وجل. فهل سيسبقون العرب إلى الفهم العقلاني والتنويري للدين؟

هل سيكون العرب آخر من يعلم وينهض؟ ولماذا كل هذه المعارضة الدونكيشوتية لحركة التاريخ؟ لمصلحة من؟

إنّ النظـرة الاستشراقية الغربية تجاه الشرق لم تتغير فالأسلوب الاستشراقي يتـم نقله من جيل إلى آخر من لامارتين إلى جيمس آرثر بلفور وكرومر وفيلبي ولورنـس العرب إلى برنـار لويس. وصولاً إلى جيـل المستشرقين الجدد. بينما العرب ساكنون؛ متلقون لمختلف أبحاث المستشرقين (السلبي والإيجابي).

سيرة ذاتية

عبدالرحمن مظهر الهلوش



(صحافي وكاتب)

مواليد سورية 1967

حاصل الإجازة في الحقوق- جامعة حلب.

عضو اتحاد الصحفيين السوريين.

ينشر مقالاته في الصحف والدوريات العربية: الشرق الأوسط (اللندنية)، والنهار (اللبنانية)، والمجلة العربية السعودية، ومجلة الشارقة الثقافية (الشارقة)... وله مقالات وأوراق منشورة في صحف ومجلات إلكترونية.

له أكثر من مخطوطة.

صدر له:

(صدّام حسين/ الجمهورية الخامسة) عن الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الثانية نيسان/ أبريل 2018.

لا يعني مصطلح (المؤسسة الاستشراقية) بالضرورة أن يكون مؤسسة استعمارية عبر تفريغها من مضمونها العلمي والمعرفي والحضاري، صحيح أن هذه الحركة لم تخل مطلقاً من التحيزات الأيديولوجية، والتدخلات السياسية، وخدمة الأجندات الاستعمارية، لكن في المقابل من ذلك ثمّة جهود استشراقية جبارة أسهمت في بعث وإحياء تراثنا العربي الإسلامي، مثلما أسهمت في مسار نهضتنا الحديثة والمعاصرة، وإن لم يحل ذلك دون تعرضها للمدح والثناء حيناً، والنقد والهجوم أحياناً أخرى.